ولادة في المجهول

رواية

ديــوان العـرب للنشــر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: ولادة في المجهول

اســـم المـؤلف: محمد خير المصطفى

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــــداع: 11927 / 2024

الترقيــم الدولي: 9 - 941 - 998 - 977 – 978

التدقيــق اللغوي: محمد خير المصطفى

تـصـميـم الغلاف: هبــة نصـــري

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـــه

رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201030502390

dewanalarabegypt@gmail.com

ولادة في المجهول

رواية

محمد خير المصطفى

ديوان العرب للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى كل الذين ضاعت أحلامهم
واضطروا إلى الرحيل،
لا تجزعوا
كلهم سيرحلون.

محمد خير المصطفى

****

تنويه

الرواية مستوحاة من الواقع

-1-

أفاق زياد صباح اليوم مكدراً على غير العادة، رغم أنه قد أخذ كفايته من النوم. لقد شعر بأن السعادة فارقته منذ زمن طويل وأنها لن تعود أبداً.

-ها أنا ذا في نهاية الثلاثينات من عمري، وها هو عهد الشباب الذي يمكن أن يجد فيه الإنسان الكثير من الأشياء التي تسعده يولّي.

ـ لحظة من فضلك، هل السعادة محصورة في عهد الشباب؟ وهل كل الشباب سعداء؟

ـ عفواً، من أنت؟ إني لا أراك؟

ـ ليس المهم أن تراني؟ ولكن أجب على السؤال، ولنرى إن كانت السعادة حقاً محصورة في عهد الشباب؟

ـ في الواقع إن للشباب همومهم ومشاكلهم أيضاً، ويمضون وقتاً طويلاً في البحث عن السعادة وقد لا يجدونها. ولكن لديهم فسحة كبيرة من الأمل لنيلها مقارنة مع شخص مثلي هرب شبابه على حين غرة.

- تماماً، مع أنّ السعادة ليست شيئاً يتم البحث عنه، ولكنها تأتي كنتيجة لرضانا عن كثير من الأشياء التي نقوم بها.

- يبدو أن الموضوع ليس سهلاً كما كنت أتصور فقد كنت أحتاج شيئاً من قوتي التي كنت أتمتع بها خلال مرحلة الشباب وبعض المال لأستعيد القليل من السعادة.

- الشباب والمال مطلوبان دائماً لدى كافة الناس ولكن هيهات هيهات، فالشباب لن يعود أبداً، فهو عهد مضى وانقضى، كما اللحظة التي تمر، ولا يمكن استرجاعها، وأما المال فلن يكون من السهل الحصول عليه إلا بالسعي والعمل، وقد يحتاج إلى خبرة ومؤهلات.

-عندما أصبحت في المتوسطة كان حلمي الحصول على دراجة عادية مثل بعض أصدقائي، وكم كانت فرحتي كبيرة عندما حصلت على واحدة قديمة كان يملكها عمي، ثم بعد أن أصبحْتُ في الثانوية تغيّرت الأحلام وباتت تحركها دوافع أخرى، وهي أن أحظى بحبيبة أبادلها رسائل الحب والغرام كما يفعل الآخرون.

- وهل تحقق حلمك هذا؟

- سأحاول أن أشرح لك، فأنا لا أذكر كيف بدأت تجربتي الأولى، وكل ما أذكره أني كنت أتعمّد السير في الشارع الذي يمر أمام منزلها، وقد أصادفها واقفة عند بابه أو ذاهبة إلى مكان ما أو راجعة، فتزداد دقات قلبي وترتبك خطواتي إلى درجة أني أتمنى وجود طريق أخر أغيب فيه، لأتخلص من توتري واضطرابي. أما هي فكانت تتابعني خطوة خطوة، ولا أدري ماذا كان يدور بخلدها.

لم أكن أتحدث بخصوصها مع أحد، وبذلك أختزن لذة حبها في قلبي وذاكرتي. وتمضي الأيام وطيفها يطاردني ليل نهار، وأنا أطارد وراءها في كل مكان أتوقع أن تكون قد ذهبت إليه، وأكثر تلك الأمكنة كانت بساتين

العنب والتين، حيث أمضي وقتاً في الصباح أو المساء وأنا أذهب وأعود في تلك الأزقة الضيقة، أتحيّن الفرصة لرؤيتها دون أن أجرؤ على الحديث معها حتى لو كانت وحيدة، وقد يندفع لساني بكلمة واحدة «مرحبا» فترد مبتسمة: «أهلا»، ليطير جسمي وكأنه ريشة من الغبطة والسرور، وتزداد سخونة وجهي الذي لو رآه أحد ما حينها لعرف أني أعاني من الهيام. وقد صادفت إحدى النساء يوماً في تلك الأزقة وكانت لي معرفة قرابة بها فقالت لي: «إن الفتاة التي مررت بها للتو تحبك، والدليل أنها كانت تلتفت وراءها كل بضعة أمتار، صحيح؟ لا تكذب؟» لقد فاجأتني بملاحظتها، وتلعثمتُ، ولم أدر ما أقول، وحاولتُ أن أبعد الشبهة عني فقلت لها: «قد تكون تنتظر أحداً من أقاربها، بصراحة لا أعرف، وقد تكون كذلك وأنا لا أعرف.» فضحكتْ بمكر وقالت: «لا تعرف ها!». وبعد أن تهربْتُ من ذلك التحقيق ابتسمْتُ وقلت في نفسي: وما يضرني إذا علمتْ فلست الأول ولن أكون الأخير.

- وماذا حصل بعد ذلك هل استمر حبكما؟

- لا أذكر كم استمرينا على هذا الحال وقد تطورت العلاقة إلى القليل من الكلام ولكنه لم يتجاوز السلام والسؤال عن الصحة والأحوال. ولم يكن من الممكن أبداً أن نلتقي وحيدين كما كنت أعتقد، فلم أكن أعرف عن حياتها أي تفاصيل حتى علمت بزواجها من أحد أقاربها.

- وماذا كانت ردة فعلك؟ هل حاولت الانتحار؟

ضحك زياد وقال:

- ولماذا أنتحر! لقد كنت في المرحلة الثانوية، ومن الطبيعي أني غير مستعد للزواج في هذه المرحلة، فالزواج مسؤولية، وأعتقد أن هذا الحب يأتي كنتيجة طبيعية للتغيرات الجسمية والعاطفية التي تطرأ على حياة المراهق وتدفعه نحو الجنس الآخر، وخوض مثل هذه العلاقات التي تكون ممتعة ومؤلمة بنفس الوقت، لما لها من ردود أفعال سلبية من جهة أهل الفتاة خاصةً إن علموا بالأمر.

- أنت اليوم تقول هذا الكلام بعد أن أصبحت في هذه السن، ولكن لا أظن أنك كنت تفكر بنفس الطريقة آنذاك.

- وما الخيارات التي كانت متاحة لي لأختار واحداً منها، فقد كنت أدرك في قرارة نفسي أنه حب لمجرد الحب، والذي كان له وقع جميل وممتع في النفس وهو أن تكون محبوباً أو معشوقاً من إحداهن، وهكذا بالنسبة لها أيضاً، وربما تحلم هي بتتويج ذلك الحب بالزواج. وها هي كما العادة تزوجت كما تتزوج كل الفتيات وهن لم يبلغن الثامنة عشرة، وإلا ستُعتَبَر من مجموعة اللواتي فاتهنّ القطار، حيث يتركْنَ التعليم في المرحلة الابتدائية أو بعدها، وربما لا يتخلصْنَ من أميتهن. أما نحن فعلينا أن نكمل تعليمنا أو نساعد أهلنا في أعمالهم، أو نسافر للبحث عن لقمة العيش، لنكون بعدها جاهزين للزواج نوعاً ما.

- وماذا فعلتَ بعد زواجها، هل حاولت رؤيتها؟

- لا أذكر أني فعلت شيئاً من هذا، سوى أني عزّيت نفسي بأنها لن تكون الوحيدة، ولن تكون الأفضل، فالرجل يمكن أن يتزوج أكثر من واحدة فكيف لا يمكنه الجمع بين حبيبتين! وقد صادفتها عدة مرات في الطريق مع قريبات لها فكنا نتبادل النظرات، وقد حدث أن التقيتها مرة في بيت أحد المعارف، وعرفت أنها لم تتفق مع زوجها وهما في طريقهما إلى الطلاق بعد عام من الزواج. بالنسبة لي لم يتغير أي شيء نحوها سوى أن الفتاة التي كنت أحبها وهي عذراء باتت امرأة ذات خبرة، وفي قرارة نفسي أتمنى لو أتمكن من اكتشاف خبرتها وتجربتها. مع الأسف هكذا أحلام المراهقين. ومرّت سنوات قليلة وعلمتُ بزواجها من شخص آخر. ومع أني كنت أحنّ إلى ذكراها أحياناً فقد شُغِلْتُ عنها بأخرى، بل قل بأخريات، والموضوع كان لا يعدو عن كونه قربًا منهن وتبادل الأحاديث معهن ليس إلا، حتى تزوجت.

- كيف كان زواجك هل كان بينكما علاقة حب؟

- كان زواجي تقليديًا جدًا وليس فيه أية مغامرات سوى أن الفتاة كانت مطلوبة لأكثر من شخص، ولكن أهلها اختاروني من بينهم، والحمد لله تزوجنا دون مشاكل.

- كيف تقول دون مشاكل وأنا أعرف أنك واجهت بعض المنغصات.

- يبدو أنك تعرف كل شيء عني! ولكن قل لي من أخبرك؟

- .....

- هل هذا جنون؟ يبدو أني كنت أتكلم مع نفسي..

كان زياد في السابعة والثلاثين من عمره، وكثيرًا ما كانت تعود به الذاكرة إلى الوراء وتعرض له أحداثاً مختلفة من حياته وكأنها فيلم سينمائي قام بتأدية دور رئيسي فيه، وحان الوقت لمشاهدته الآن وتقييم تجربته الحياتية بعد تلك السنين الطويلة، وهو في لحظة غير لحظة، ومكان غير مكان، فتُسَرّ نفسه أحياناً وتنقبض أحياناً أخرى، بحسب القواعد التي بات يسير عليها اليوم ولو كان في ذلك بعض الظلم لنفسه.

لقد تم اختياره مشرفًا للمركز الثقافي في مدينته الصغيرة. كان إداريًا بامتياز، دقيقًا جدًا في عمله، يحب الرتابة والترتيب، فلا يمكن أن ترى في المكتبة كتابًا ليس في مكانه، أو نافرًا عن مجموعته، ليس لأن الكتب لا تخرج من مكانها، لا، ولكنه دائمًا ما كان يحرص على إعطاء تعليماته بكيفية البحث عن كتاب، وطريقة سحبه، ثم إعادته إلى مكانه بلطف وسلاسة بعد الانتهاء من مراجعته أو قراءته، هذا عدا عن اللوحات الجدارية التي اختار أماكنها والعبارات التي تحملها تلك اللوحات، بداية من المدخل وانتهاء بالغرف وصالة المطالعة. كما كان يحرص على عدم إضاعة الوقت، فيمضيه في قراءة الكتب عندما لا يكون مشغولاً بعمل

آخر، وما الأعمال الأخرى إلا أعمالًا تصب في نفس الموضوع: كتابة، ندوة، أمسية شعرية، لقاء ثقافي مع الأصدقاء. أما الاحتفالات المتعلقة ببعض المناسبات الوطنية فكان يجدها في قرارة نفسه مضيعة للوقت، إذ يُساق الناس إليها سوقًا، وفيها الكثير من التزلف والنفاق وإشغال الناس عن الحقائق. وليس أجمل عنده مما كان تصرفًا عفويًا على السجية دون البحث في مرضاة فلان أو علّان، وليس أسوأ وقعًا في نفسه مما كان متعلقًا بالحزبية والتحزبات، وما كانوا يدعونه المنطلقات والنظريات التي لا يجد فيها ما يقبله العقل ولا يواكب المنطق، وتبقى مجرد تخيلات في عقول أصحابها ومروجيها. كان يحب الكلام البسيط الذي يخرج من القلب دون تكلف أو تزلف، ويفهمه جميع الناس على مختلف تحصيلهم دون الخوض في ثنايا الفلسفة واللعب في الكلام. أما ما كان يراه فسادًا في مختلف النواحي فيعمد إلى كتابته على شكل مقالات في دفتره السميك، والمجلد بغلاف بلاستيكي أسود دون أن يشاركها مع أحد، إلا ما كان من الممكن ألا يشكل خطرًا عليه من أجهزة الأمن والعيون المنتشرة في كل مكان، بالإضافة إلى مذكرات أخرى. كان يدرك أنه لا يستطيع بمفرده أن يغير شيئًا، ولكنه كان يبرّئ ذمته أمام نفسه على الأقل بنكران ذلك في قلبه وفي باطن دفتره الأسود.

كانت المدينة على صغرها تشهد تجاذبات عشائرية بشكل عام، يعود مصدرها إلى تاريخ نشوء هذه المدينة النائية عن المدن الكبيرة والقريبة من المكونات البدوية في المنطقة، وتتجه هذه التجاذبات نحو جهتين حزبيتين

ولدت إحداهما من رحم الأخرى، ولكنهما تنافستا فيما بعد على فرض سيطرتهما على القرارات الصادرة بحق هذه المنطقة الصغيرة، إذ لم تكن تلك التجاذبات على هذا النحو، بل مرّت بمراحل عدة عبر سنين، حيث كانت الحجارة والعصا الغليظة تتسيّد الموقف، ثم تلاها بعد ذلك التلويح بالقوة البشرية لكل طرف إلى أن جاءت السياسة ثم السلاح بكافة أنواعه بعد ركوب موجة الثورة.

وهناك من ذوي الأعداد القليلة أو المشتتين في عدة أماكن من المنطقة، ممن لا يُحسَبون على أية كتلة، فيحاول الآخرون جذبهم بإغراءات ما لتقديم الدعم والولاء. أما زياد فكان ينظر باستعلاء إلى تلك النزعات الجاهلية، وشعاره (إنما المؤمنون إخوة) و(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، ولم يكن من السهل كسبه إلى أي طرف، فهو يحاول أن يكون متوازنًا مع الجميع قدر الإمكان، مع أن كل طرف يعتقد أنه يميل إلى جهتهم. لقد خبر الجميع برؤيته الثاقبة فهم لا يبحثون إلا على مصالحهم الضيقة وبقاء سيطرتهم، ويوهمون الجميع أنّ لا شيء يمكن أن يسير إلا إذا سمحوا به أو جاؤوا بالموافقة عليه، ولذلك كان يعتمد على نفسه في كل أموره بعد توكله على الله، ويناضل لتحقيق أهدافه المشروعة دون ضجة، ودون أن يمنّ عليه أحد، ودون أن يلحق الأذى بأحد.

لبس بنطاله الرمادي والقميص المخطط بلونين هادئين يليقان بالرمادي، وقد اعتاد ألا يدفعه داخل بنطاله فيبقى ساتراً الجزء العلوي منه، وقد وضع

شيئًا من عطر اللابيدوس تاركاً ذقنه دون حلاقة منذ عدة أيام، وقبل أن يخرج ألقى نظرة من خلال باب غرفة النوم الموارب مودعًا زوجته سلمى التي أشارت إليه بيدها أن مع السلامة.

في مكتبه وبعد أن جهز لنفسه فنجانًا من القهوة أمسك دفتره وبدأ الكتابة:

كثيراً من القضايا التي لا يمكن إغفالها حتى لو كانت بسيطة وليست ذات أهمية للبعض، ولكن تجب معالجتها. وأما الشائك منها كقضية الاستئساد فلا يمكن معالجتها بسهولة، إذ أنها تجذرت بشكل سرطاني وتحتاج إلى تكثيف طاقات على مستوى أفراد وجماعات. ولكن كيف سيكون العمل مع أولئك الذين يزداد استئسادهم وكِبرهم كلما ارتفع مقامهم في الهرم؟ لا شك أنهم يعتبرون هذا جزءًا من مكانتهم، ولا يليق بأي شكل من الأشكال التخلي عن هذا الاستئساد الذي أصبح ميزة تجعل صاحبها مهابًا ويُحسب له ألف حساب.

سأل أحد مسؤولي حزب البعث يوماً أعضاء حلقته: إذا كان في القرية مرشحان اثنان لمنصب ما، وكان أحدهما بعثيًا من خارج القرية والثاني محايدًا من أهالي القرية، فأيّهما تنتخبون؟ لم يجب أحد. فتابع المسؤول: بالتأكيد تنتخبون البعثي. والذي حدث بعد فترة من الزمن أنّ هذا كان واقعًا، وخوفًا من فوز المرشح المحايد كان التزوير حاضراً وبقوة لدى البعثيين، فكانت فتنة كبيرة أجبرت الناس على الاصطفاف إلى إحدى

الجهتين، إلا بعض العقلاء الذين ما كان لهم إلا أن يبقوا متفرجين من بعيد، كي لا تصلهم الحجارة المتطايرة بين الطرفين؛ حتى أن بعض النساء لم تتورع أن تشارك الرجال في هذه الموقعة، والنتيجة عدة جرحى، تمّ تضميد جراحهم بقطع من الشاش بعد تنظيف الجرح بمعقم يعرفه الناس بالدواء الأحمر، إذ أنه لا مستوصف ولا طبيب في البلدة.

أغلق دفتره وغبّ ما بقي من فنجان القهوة، ثم سار باتجاه النافذة المطلة على شجر السرو، وساقية الماء المتهادية رقراقة إلى داخل البساتين. أخذ نفسًا عميقًا من نسيم الصباح الداخل إلى غرفة مكتبه، وقد حمل رائحة التراب المروي للتو في جنبات بستان الكرمة وشجر التين. اتكأ بمرفقيه على حافة النافذة واستحضرت ذاكرته مكانًا كهذا، ولحظات ذهبت عبر زمن طويل عندما كان في العاشرة من العمر برفقة أخته وصديقتين لها من العائلة، يكبرنه بعدة سنوات، وأرجوحة من حبل القنب رُبطت إلى أغصان شجرة التين الضخمة تحلّق بهم كالعصافير. كانت السعادة تغمرهم في طفولتهم، يتأرجحون، يتراكضون وراء بعضهم في ألعاب معروفة مختلفة، يسقطون على الأرض متعثرين على العشب، ويضحكون، ولكن الطفولة لا تدوم. بعد سنوات قليلة تتزوج إحداهن من شاب يكبرها بعشر سنوات على الأقل، وقد رأى في حياته ما رأى بأماكن عمله في دول الخليج، وخبِر السمراء والبيضاء، والطويلة والقصيرة، وجاء ليكمل نصف دينه بفتاة بسيطة لا تعرف من فنون الحياة إلا ما عرفته من أمها في البيت وفي

البستان وعند الجيران، ومن سلطان الأب والأخ وحق الطاعة والاحترام. في تلك الليلة التي تحلم بها وتهلع منها كل فتاة بالغة وتسمع عنها الحكايا والقصص والخرافات، وقد لا تعرف عن حقيقتها التي يُعتبر الحديث فيها من المحرمات، ويبقى ما يعلق في الذهن مما يتسرب بين صديقات الطفولة من خوف ومبالغات. في تلك الليلة التي هي امتحان الطهر والعفاف وجهاز القياس فيها ليس مقدار الألم الذي يشي به إطباق العينين وضغطهما، ولا الحياء والخجل الذي يشي به الاستسلام والانقياد وارتعاش الأطراف، ولكن قطرات الدم المسفوحة لأصحاب فحولة العشر دقائق التي تعني رجولتهم. في تلك الليلة كان الرجل الخبير يبحث في كل أجزاء جسمها من الشعر حتى القدمين، يقارن باحترافية أجزاء بأجزاء، ولكن لا مجال للمقارنة، فالفتاة نحيفة وقد غادرت طفولتها منذ عهد قريب، وفكّر في نفسه أنّ هذه بضاعة لا تُرد، وماذا يمكن أن يُقال عن فحولته لاحقاً، فانتقل إلى الامتحان.

وفي الامتحان يا لها من صدفة، فقد وافقت تعاستها حظّه السعيد، فلم يرى أثرًا لقطرة دم واحدة، وسأل متهمًا بعد أن أفرغ طاقته ولملم نفسه: لمن سلمْتِ نفسك قبلي فأنت لست عذراء؟ فغرت فاها واختنق الكلام بحلقها، وردّ سيل دموعها. لم تفهم قضيتها فراحت تبحث عن صدق قوله بين ثنايا الماضي الذي لا تذكر فيه أنها كانت تجرؤ على الاقتراب من الوادي، فأمها دائمًا كانت تحذرها من الاقتراب منه لأنها مازالت صغيرة، لا تنطّي

كالأولاد من فوق شجرة التين، لا تقتربي من شخص غريب، لا تركبي دراجة أخيكِ.. لقد كانت حذرة كل الحذر.

- ولكن كيف حدث هذا لي؟ هل فعلها الشيطان وأنا نائمة؟ أنا لا أذكر أي شيء. كانت تسأل أمها بحرقة، وأمها تلطم وتبكي.

وكان يمكن أن تتحول هذه المشكلة إلى قضية كبيرة تستعصي على الحل لولا تدخل العقلاء، وإدراك حقيقة أن نسبة كبيرة من الفتيات لهن غشاء مطّاط، كما أوضحت إحدى الطبيبات في ندوة أقيمت بالمركز الثقافي.

قطعت ذاكرة زياد سباحتها في بحر الماضي بعد أن دقّ أحدهم باب المكتب:

- أهلًا أستاذ حسن، تفضل.

- زاد فضلك. هل هناك ندوة قادمة؟

- بالتأكيد. ما رأيك في موضوع الاستئساد؟

- الاستئساد دفعة واحدة! هل تريد أن نغيب وراء الشمس؟

ضحك وقال:

- لا، ولكن سنسمّيه التنمر.

- التنمر، الاستئساد، يوجد تشابه.

- هل تذكر درس اللغة العربية في الثانوية عندما طلب المدرس أن نعطي أمثلة في التصغير؟

- تقصد أسد، أسيد؟

- نعم، كادت أن تصبح هناك قضية..

- إنه استئساد الجزء على الكل مع الأسف. لقد بات الكثيرون يلهثون وراء امتيازات الحزب إما بالقرب من أعضائه أو الواسطة للوصول إلى المناصب وإن صغُرت.

- هذا موضوع يطول الكلام فيه ولا ندري إلى ماذا ستصير الأمور بعد أن بدأت الثورة على النظام، دعنا من هذا كله ولنحضّر موضوع الندوة.

انطلقت الندوة في موعدها وكان الحضور كالعادة ليس كما ينبغي وهو يضم مجموعة من الأهالي الحريصين على متابعة تحصيل أولادهم، ومن مجموعة من المربين والمهتمين. وفي النقاشات تبيّن أن مشكلة التنمر لم تكن مقتصرة على حالات قليلة بين طلاب المدارس، ولكن تعدتها وظهرت حيث يجب ألا تظهر. هل يمكن أن يتنمّر مدير على مدرس؟ نعم، يحدث هذا في بلاد يستأسد فيها الأقوياء بعشيرة أو بسلطة على المستضعفين الذين لا يرون في أولئك اللاهثين وراء الكراسي إلا قلة العقل والضمير والسير في مصالح شخصية ضيقة. كيف يمكن لهذا البلد أن يتصالح مع نفسه وتسود فيه العدالة ويعم الخير، وفيه من ينفخ نار الشقاق والنفاق والتفرق؟ صرخة مكتومة في صدر زياد لو خرجت من فمه لضجت أطراف المدينة، وانكفأت الذئاب المتربصة إلى أوكارها، ولاذت الثعالب الماكرة خلف ذيولها. هل من صرخة تعيد إلى الناس محبتهم وكرامتهم، وتمحو كل أنواع التحزّب والشقاق؟

كانت الحركة دؤوبة في هذه الأيام بسبب قرب الانتخابات الحزبية رغم بدء الثورة، فكِلا الفريقين علوان وبركات يحشد أنصاره وأصدقاءه للفوز بأكبر نسبة من الأعضاء في الشعبة الحزبية، ليس ذلك فحسب فكثير من قضايا التعيينات في أماكن إدارية تتطلب ثقلاً سياسياً أكبر وقرباً من مصادر القرار. فانتخاب مشرف للمجمع التربوي مثلاً يحتاج إلى اتصال هاتفي يتضمن الاسم المراد تعيينه، ليصار بعدها إلى ترشيح عدة أسماء وإعطاء صبغة المسابقة لاختيار الأنسب من قبل وزارة التربية والتعليم، ثم يتم اختيار هذا الفلان كما هو مطلوب. ومثل ذلك لتعيين موجه تربوي، ومدير لدائرة ما.. وهكذا تدار الأمور في هذه البلاد، وبالتالي سيكون التنافس على أشدّه في الانتخابات الحزبية وعلى مختلف مستوياتها، لأن القضية تعني انتزاع السيطرة من عائلة لصالح أخرى.

لم يكن زياد يهمه أي شيء في هذه المعمعة، ولكن عليه أن ينتخب كغيره من الحزبيين الذين انتسبوا إلى هذا الحزب منذ كانوا طلاباً في الثانوية ودون اختيار منهم. تلقّى دعوات من الطرفين، وزاره في بيته من كان يريد أن يكسب ودّه، فهو بالنتيجة يمثّل عدة أصوات في العائلة، وسُئِل إن كان يرغب بالترشح، أو إن كان له رغبة في أن يستلم فرقة حزبية مثلاً، فالطريق ممهدة، وسيكون له ثقله السياسي ورأيه المعتبر. رفض كل ذلك، فهو أصلًا لا يطيق السياسة ولا العمل بها، ولكن كان مضطرًا لوعدهم خيرًا، مع أنه لن يكون قادرًا على إعطاء صوته إلا لأحد الفريقين المتضادين، أو إلى طرف

ثالث، وهوما استقر رأيه عليه، وهذا لن يقدم ولن يؤخر أيًا كانت النتيجة. ولكن الانتهازيين لا يدّخرون جهدًا في مثل هذه المواسم، فهم يقدّمون ولاءهم طواعية، ويلمّحون إلى رغباتهم ومشاريعهم، وقد يتحدّثون عن الآخرين ومخططاتهم، ولا مشكلة إن كانوا يؤلّفون أو يفترون، فالغاية تبرر الوسيلة.

كان زياد يعرفهم بالاسم، وخاصة أنّ الأمر لا يحتاج إلى كثير من الاجتهاد أو المراقبة، فهم يعملون علانية دون تخفٍ، ولا يهمهم ماذا يُقال عنهم، ويريدون الوصول إلى غاياتهم بأي ثمن. لم يكن زياد قادرًا على التسامح مع هذا النوع من الأشخاص الذي يبيعون ذممهم بهذه الطريقة المبتذلة، ولا يحاولون الوصول إلى مبتغاهم بقدراتهم الشخصية ومؤهلاتهم، وقد يكون فساد ذلك لا يعود إليهم فحسب، بل إلى حزب لا يرى قادته إلا تقديم الفاسدين ذوي النفوس المريضة وإبعاد الصالحين. وأما أقرباء المسؤولين في المدينة فيعتبرون أنفسهم سادة لها ومسؤولين عن حماية مكتسباتهم، فهم ينظرون بعين الريبة إلى كل تجمع ليس لهم يد فيه، حتى لو كان عدة طلاب جامعيين لا تجمعهم إلا الصداقة أو الزمالة وخاصة حينما يلتقون في مناسبات معينة، أو لمجرد السهر والسمر. فيرسلون لهم من يحذرّهم، ليس خوفًا عليهم ولكن خوفًا منهم.

عاد زياد إلى دفتره ذي الغلاف الأسود ليكتب في صفحة جديدة:
أقنعونا بأنّ أفكار الحزب ماهي إلّا لتحرير الناس من الظلم والعبودية، والنقابات على أنواعها ما هي إلّا لتنظيمهم والدفاع عن مصالحهم، وأنّ الحزب نفسه حركة شعبية انقلابية تناضل في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية. ومن هذا كله لا نرى على أرض الواقع أي شيء، بل على العكس شاع الظلم والاستعباد، وتحول النظام إلى مافيا تمتص خيرات البلاد، وصارت البلاد مزرعة لفئة من لون واحد، تمتهن فيها كرامة الناس من الصباح حتى المساء. إنّه شكل من أشكال الاحتلال ولكنه احتلال داخلي محلي سرطاني. فلو راجعنا رحلة رغيف الخبز مثلًا حيث كان يتوفّر القمح والطحين، فكانت الأسرة تخبز ما تشاء في أي وقت تشاء على التنّور، إلى أن تم الترخيص للأفران الخاصة وفقدان الطحين من السوق، فكنّا نقف منذ الصباح الباكر على أبوابها وبشكل فوضوي وننتظر نظرة الرحمة من الفرّان ليأخذ منّا ثمن عدة خبزات قد تكفي العائلة وقد لا تكفيها، وحتى يتمّ التحكم بالنّاس أكثر وضعوا أبوابًا مصمتة من الحديد، وتركوا طاقة صغيرة مربعة تتسع لرأس شخص واحد، ليبدأ العراك بعد قليل من تكاثر الناس. ومرت سنوات قليلة لتلغى الأفران الخاصة ولتُعتمد أفران آلية مركزية في بعض المدن، ليُصار إلى توزيع الخبز إلى القرى والمدن المحيطة بسيارات شاحنة إلى مركز أو مركزين دون تحديد وقت معين حسب اتساع القرى والمدن الصغيرة، ولنا أن نتخيل الصراخ والعراك للوصول إلى الطاقة

السحرية في المركز، هذه الطاقة التي تمتد منها عدة أيدي إلى الداخل، ويقف موزع الخبز كالتمثال، يتابع ببلاهة أجزاء الوجوه والأعين والأفواه التي تستجديه بالنداء والاستعطاف، ثم يختار أحدها بمزاجية بغيضة، وقد يصل أحدهم إلى الطاقة وكان قريباً من أن تُزهَق روحه بسبب ضغط الأجساد المحيطة به. فكم من امرأة خرجت من هذا الصراع دون غطاء الرأس، أو تمزّق ثوبها لتحصل على ربطة أو ربطتين، لأن الخبز للحاضر، وأمّا منْ تأخّر فسيمضي يومه بلا خبز.

ويمرّ عامان أو أكثر، ومزيدًا من الشكوى في فرقة الحزب من أجل توزيع الخبز على عدة مراكز وتحسينه، وتحسين ظروف نقله، حتى تمت الاستجابة، أما الجودة فحدّث ولا حرج. وجاءت الثورة حتى بات طحين الخبز عبارة عن خليط من ربع القيمة من دقيق القمح، والباقي من مواد لا نعرفها، وقد تكون مخصصة للحيوانات، فصار الرغيف أسود اللون مفتتًا داخل الكيس الذي يسمونه تكرمًا ربطة.

وها هي مسرحية الانتخابات الحزبية التي تقسم الناس إلى أعداء وأصدقاء قد انتهت، وفاز حلف عائلة بركات التي لها باع طويل في العمل السياسي ومعرفة لعب مثل هذه المسرحيات بنجاح. فالرجل الذي أمضى حياته مسؤولاً منذ شبابه لم يكن ليتخلى عن تأثيره بمجرى الأحداث وجعلها تسير كما يريد، إنه صالح بركات الرجل الذي يعرف عددًا كبيرًا من المسؤولين بحكم عمله الحزبي. ولكن هل سيتم إجهاض الثورة وتستمر

الأمور كسابق عهدها؟ أم أن الثورة ستكون قادرة على الاستمرار والتغيير نحو الأفضل؟ أو أن الكل سيستخدم أسلوب الخراب والتدمير ورفع الشعار المعروف: عليّ وعلى أعدائي؟

****

-2-

عاد زياد إلى نافذة أحلامه وكأنه يهرب من الواقع الذي ليس فيه إلا أخبار الألم. من النافذة وصلت إلى أنفاسه روائح مختلطة من الزرع والشجر والتراب المروي، وتابعت نظراته عصفورين دوريين يلازمان بعضهما لا ينفكان، وسرح خياله عبر الماضي يستحضر أياماً خلت عندما استضاف أديبة للحديث في ندوة بالمركز الثقافي عن حياة المرأة في الريف.

- هل أنت مرتبط؟

قال بمكر: - بالتأكيد، عندي ارتباطات، هنا، وبالبيت، و..

قاطعته مبتسمة ومتجاهلة مناورته:

- هذا جيد، لقد ظننت أنك مثلي لا يعنيك مكان ولا زمان.

- كلنا نعيش طبقاً لحدود المكان والزمان الذي نتواجد فيه، وهل يمكننا اختيار ذلك بمحض إرادتنا؟

- بالطبع لا، ولكن يمكننا أن نتكيف بهذا المكان وهذا الزمان الذي أجبرنا عليه، أليس كذلك؟

- بالتأكيد يمكننا فعل ذلك ولكن ضمن حدود معينة.

- هل أنت متشائم؟

- لست كذلك، ولكن كيف لنا ألّا نتأثّر بما يجري حولنا من ظروف اجتماعية واقتصادية، و.. وسياسية.

- هذا صحيح، يبدو أن لديك مشاعر حساسة.

- قولي إني أحمّل نفسي زيادة.

- الحياة قصيرة جداً، وينبغي أن نعيش كل دقيقة فيها بدل اللهاث وراء السراب. أن تكون واقعياً أفضل من أن تكون خيالياً حالماً، فالقطار يسير ولن يتوقف، فإما أن تركب فيه وإما أن تبقى في مكانك لا تتقدم.

- إنك تفاجئيني أيتها الأديبة، فما تتحدثين به مختلف تماماً عما تكتبيه، فكيف تطلبين مني أن أكون واقعياً وكتاباتك مليئة بالخيال والأحلام والمشاعر الرقيقة، فهل هي مخصصة للبيع في أكشاك الصحف والمجلات وعلى رفوف المكتبات؟

- ليست كذلك، لكن ليس لنا إلا أن نتخيل أنّا نعيش أحلامنا ومشاعرنا الرقيقة في ظل هذا الواقع الصعب، ونسطّرها على صفحات المجلات والكتب، فلو كانت حقيقة الواقع كما نحلم فلا داعي للحلم أصلاً، ولن يكون هذا إلا نوعاً من العبث وكفراً بالواقع الجميل الذي نعيشه.

كان زياد معجباً بالأديبة نوران ومتابعاً جيداً لكتاباتها، وقد قرأ كتابها الثاني والذي كان رواية يظن أنها تحكي فيها عن نفسها،

ولو لم تشر إلى ذلك صراحة. تردّد قليلاً حتى سألها:

- وماذا عن الرواية التي نشرتها مؤخراً، هل هي حكايتك أم من نسج الخيال؟

ابتسمت وقالت:

- ما أسهل أن نكتب عن الحبّ وما أصعب أن نجد الحبيب.

- ولكن ما أعرفه أنّ من يكتبْن عن الحبّ جذّابات كالمغناطيس، يجذبن إليهنّ الكثيرين بقصد أو بدون قصد.

- نعم، ولكن المغناطيس يجذب إليه الحديد وكذلك الصدأ مع الأسف.

- ابتسم معترضاً: لا، لا أبداً، يبدو أنك ذهبتِ بعيداً، كنتُ أقصد أنّه من منّا لا يريد أن يعيش الحُبّ بكل حواسه وأحاسيسه، ولكن أفترض أن الأديبات لا يعانين قلة في الطلب، ولهن إمكانية التفضيل والاختيار.

- وقد يكون هذا أصل المشكلة فكثرة الطلب لا تعني جودة الطالبين أو صدقهم. هل توافقني الرأي؟

هزّ رأسه موافقاً وقد شعر بسخونة تسري بكامل جسده في هذه اللحظات، وتساءل في نفسه إن كانت حمّى الحب اجتاحته بعد أن سمع من التلميح والتصريح ما سمع، إنها تعني أنّها لم تجد ما يناسبها بعد، فهل تراني الشخص المناسب الذي تبحث عنه؟ عليّ أن أنتهز الفرصة ولا أضيّعها.

- بالتأكيد أوافقكِ الرأي بأنّ الوقت مناسب جداً لنشرب قهوتنا، وأعتقد أنكِ تفضلينها سادة إلا إذا كنتِ قد عدّلتِ مزاجكِ فيها.

ضحكتْ وقد علا بياض وجهها حمرة طبيعية، وكأنها تكشفه لأول مرة أمام رجل، رغم أنها التقت بزياد عدة مرات في اجتماعات وندوات ثقافية سابقة.

تراجع زياد عن النافذة ثم اتجه نحو المكتبة حيث كان يحتفظ بنسخة من كتاب نوران «عطر الغيوم»، تلمّسه بيديه، وقلّب بعض صفحاته، ثم قرأ بعينيه:

أيتها الغيوم التي تخفي القمر
سأبقى هنا حتى السحر
على الهضاب وفي الوهاد سأنتظر
قمري هناك يسري يختلس النظر
تراه يراني، يرقب حيرتي، ونار قلبي تستعر
أيتها الغيوم اسمعيني فإن الليل لن يدوم
وتسافرين وتنثرين العطر ما بين الكروم
وقمري ينزاح عنكِ لمّاعاً بين النجوم
وسنلتقي ونرتقي وألقي عن بالي الهموم

ورفع صوته مكرراً: وسنلتقي ونرتقي وألقي عن بالي الهموم. أهٍ يا نوران.. ما أرقّ كلماتك، أين أنت الآن يا ترى؟ فلم يبق بيننا إلّا رسائل البريد الإلكتروني.

دخل الأستاذ حسن وهو ينبّه زياد بقوله أين قهوتك يا صديقي، فردّ عليه جاهزة ولكن بعد دقائق، تفضّل.

- إي، كيف العمل؟ على ما يبدو لن تبق مدينتنا بعيدة عما يجري فقد أقيمت حواجز عسكرية على مداخلها الرئيسية وتم تسيير دورية مسلحة برشاش يجوب الشوارع في أوقات مختلفة.

- بعد أن انتشرت الثورة على مساحات واسعة من القطر فقد استشعر النظام خطورة الوضع ولم يجد سبيلاً لإخماد الثورة إلا بنزول الجيش، فأصبح الجيش في مواجهة الشعب.

- كما تعلم، عمل بعض الشباب تنسيقية للثورة أسوة بالمدن الأخرى، فإن خرجوا بمظاهرة بعد صلاة الجمعة فقد يطلقون عليهم الرصاص.

- كل شيء وارد، وخاصة أن الشباب مندفعون إلى درجة أنهم لا يخافون الموت.

- ما يقلقني انقسام المدينة حول الثورة كما في كل المناطق الأخرى الخالية أو البعيدة عن الأقليات، فمن كان منتفعاً من هذا النظام كالضباط المتطوعين، ومن الموظفين المدنيين في مناصب إدارية عليا، وذوي المناصب الحزبية تجدهم وأهاليهم يدافعون عن أفعال النظام ويتبنون روايته، وهم خائفون على مراكزهم ومكتسباتهم، ويصمون المتظاهرين بأقذع الأوصاف. وفي الطرف الآخر من يجد ضرورة مناصرة الثورة والخلاص من قمع هذا النظام الأمني الفاسد حتى لو تم تقديم التضحيات، والتي يعتبرها جهاداً في سبيل الله. والقسم الثالث الذي يتمنى أن يتراجع النظام عن أساليبه

القمعية ويعطي الحرية التي تليق بالبشر، ويكافح الفساد، ولا يهمه من يحكم مع خوفه أن تصل الأحداث إلى المدينة.

هزّ زياد رأسه موافقاً وقال:

- في الاجتماع الحزبي الماضي سمعت بنفسي ما يقوله المحاضر فرحات بركات، والذي من المفترض أن يكون قد تقاعد بعد خدمته الطويلة كعضو بين الفرقة والشعبة. كان يتحدث وكأنه مذيع أخبار في القناة السورية داعياً إلى ملاحقة من يسمونهم المندسين والتبليغ عنهم، وثني الشباب الجاهل عن الخروج بمظاهرات، وتوعيتهم وتبصيرهم بالخطأ الفادح الذي يرتكبونه بحق دولة المقاومة والصمود، وإلا ستكون عاقبتهم وخيمة.

- إن هذا الرجل يكرّس الشرخ بين أبناء المدينة، بل يريدهم أن يقتتلوا فيما بينهم بقصد أو عن غير قصد. وأيّ صمود هذا الذي يتحدثون عنه وهم يقتلون الناس بدم بارد؟ ما أكذبه من رجل! وأنا لا أطيق الكذابين.

- أتمنى لو يراجع فرحات نفسه، وأن يكون أكثر لباقة مع الرفاق الذين يعرفون الحقيقة، وألا يتحدث بهذه العنجهية المقيتة.

- لقد سمعت أنه يلتقي مع قيادات عسكرية فهل يمكن أن يكون مكلّفاً بنقل أخبار المدينة أولاً بأول.

- هل تقصد أنه جاسوس؟

- يعني.. ربما يكتب تقاريراً بالشباب وما شابه.

- الله أعلم! ولكن إن كان يفعلها فمصيبة.

- سنرى في مستقبل الأيام على كل حال.

كان زياد يمضي غالب وقته المسائي في المنزل مع زوجته يتابعان الأخبار وما آلت إليه أحداث الثورات في الدول العربية التي سبقت. وكانت زوجته لا تخفي قلقها متسائلة إن كانت الأحداث ستصل إلى مدينتهم الصغيرة أم ستبقى محصورة في المدن الكبيرة وبعض المناطق. باتت الليالي حالكة الظلمة، ولم يعد لظهور القمر في بعض أيام الشهر أي معنى في النفوس، بعد أن تحول صمت الليالي المخيف إلى حالة من الترقب والخوف، تخترقه أصوات القصف القادمة من بعيد بين الفينة والأخرى. بل إن انفجارات قذائف المدفع المنصوب على رابية الجبل القريب حديثاً كانت مفاجئة. صوت مرعب يصم الآذان وترتج له البيوت، وتصل أصداؤه إلى المناطق المحيطة، وفي أوقات عشوائية لا تراعي نوم طفل أو مريض.

في السهرة حيث تجتمع العائلات كبارًا وصغارًا، أصبح الكبار يحرصون على متابعة القنوات الإخبارية بعد هجر برامجهم المسلية الأخرى، وبات الصغار يرون معهم مشاهد العنف والقتل وسيلان الدماء في المظاهرات، والتي لم تعد خافية عليهم بأنها مشاهد حقيقية وليست تمثيلاً، وربما شاركوا بآرائهم حول ما يجري بعد أن علموا أن هذه الأحداث ليست في فلسطين، وعناصر الجيش وسياراته ودباباته المنتشرة في الشوارع لا يتبعون الجيش الإسرائيلي.

كانت زوجة زياد تخفي الكثير من آلامها التي تجتاحها بشكل مفاجئ على شكل آلام في المعدة، أو انقباض في الصدر، أو الحاجة إلى التقيؤ، بالإضافة إلى الأرق. كما أنها لم تعد تُقبِل على الطعام كالمعتاد، فبدت نحيلة كئيبة جامدة. لم يتردد زياد في استشارة طبيب العائلة بعد أن اكتشف معاناتها، ولكنّ الطبيب كان يطمئنه بأنّ المشكلة نفسية بسبب الخوف مما يجري، وأن الحالات المماثلة بازدياد، فمن الأفضل مبدئياً عدم متابعة أخبار القنوات الفضائية، وعدم تصديق الشائعات، وأخذ حبة واحدة كل يوم قبل النوم من دواء مهدئ وصفه لها.

في المدينة وعلى حين غفلة، انقضّت أعداد من أفراد الجيش المدجج بالسلاح من الناحية الشمالية. كان الأهالي يتسابقون مع تصاعد وتيرة الأحداث، ويتابعون حياتهم في بيوتهم ومحلاتهم وبساتينهم، يحفرون الآبار الإرتوازية الممنوعة، ويزرعون ويبنون دون ترخيص. بدأ الجند بتمشيط أزقة البساتين والأكواخ المبنية في بعض منها، كما أغلقوا بعض الطرق الرئيسية القريبة من مركز المدينة بالحواجز. لا أحد يمكنه تخمين أهداف العملية المفاجئة، والتي لم يُعلن فيها حظر التجوال، بل تركوا الناس تتصرف على سجيتها، في يوم اختاروه أن يكون يوم الجمعة، حيث يخرج فيه الشباب بالهتافات الرافضة للنظام.

جال زياد بعينين زئبقيتين من نافذة غرفته المطلة على الطريق، وقد خذلته قواه في إكمال وقفته الطبيعية ليبدو كمن يعاني من مرض ديسك

مزمن. كان انحناؤه لافتاً لزوجته التي لم تقو على الاقتراب من النافذة، وفضّلت البقاء بعيدًا داخل الغرفة قرب الباب، تراوح بين إشغال نفسها بالعبث بأواني المطبخ، والدعاء إلى الله ألا تُمسّ هي وزوجها وأهلها بأذى، وكذلك أهل المدينة.

مجموعة من الشباب حنت ظهورها تعباً ورؤوسها قهراً وذلاً تمّ انتزاعها من أعمالها. ثيابهم الشاحبة وشعورهم المغبرّة لم تشفع لهم ليُترَكوا لشقائهم، بل اقتادوهم إلى المجهول. وفي الجوار عند مفرق الطريق عدد من المسلحين ينظرون في الوجوه والبيانات ويفتشون الجيوب والقلوب، وآخرون يدخلون البيوت ويبحثون في كل الغرف والزوايا.

قالت سلمى في نفسها: ليتك تبقى بجانبي يا زياد ولا تذهب إلى الجامع هذا اليوم، إني أموت خوفاً. وسألت بصوت مرتعش وقد قطّبت حاجبيها: ماذا يحدث يا زياد؟ أجاب متصنعاً: لا تخافي يا عزيزتي، تفتيش عادي، وسأذهب إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة وستكون الأمور بخير بإذن الله.

- ربما يلغون صلاة الجمعة اليوم.

- لا أظن ذلك، فالناس تروح وتجيء، وتفتيش روتيني للترهيب على ما أظن.

وقال محدثاً نفسه: ماذا أقول لك يا عزيزتي، هل أخبرك بأن الخوف تملّكني أنا أيضاً من هول ما رأيت. هل أخبرك بأني رأيت ملثماً تحدّث مع عناصر

الجيش لأقلّ من دقيقة ثم اختفى؟ جواسيس في مدينتنا؟ هل أخبرك عن المساكين الذين اقتادوهم ويمكن ألّا يعودوا؟

صوت طائرة مروحية يتعالى، يراها زياد من نافذته تقترب محلقة على علو منخفض، وضابط الحاجز يلوّح لها ببارودته الروسية بشكل أفقي، لتعود إلى علوها ثانية وتغادر، وقد خمّن زياد أن الإشارة تعني أنه لا توجد مقاومة. كان يشرح لزوجته كل ما يراه ولكن بلغة الواثق المطمئن بأنّ الأمور ستمر بسلام.

خطب الإمام خطبة مقتضبة جدًا بسبب الحملة العسكرية، وفي نهايتها رسالة مبطنة إلى الشباب بضرورة العودة إلى البيوت، لأنّ هؤلاء المجرمين لم يأتوا مسلحين بقصد النزهة أو صيد العصافير، بل جاؤوا وقد تدربوا على سفك الدماء دون أن يرفّ لهم جفن. خرج زياد من الجامع الكبير القريب إلى منزله بعد انتهاء الصلاة مباشرة، وقد كانت عناصر من الجيش المستنفر على بعد خمسين متراً تقريباً يراقبون حركة الخروج من باب الجامع. عندما مرّ زياد بجانبهم، كان أحدهم يحمل الآر بي جي وقد جلس القرفصاء، ثم مال بركبته إلى الأرض قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم» حالما سمع صوت بعض الشباب الخارجين من باب الجامع يهتفون: «الله أكبر، الشعب يريد إسقاط النظام.» أراد بجلسته وبسملته إطلاق القذيفة، فأوقفه زميله الذي كان يحمل بارودة روسية قائلاً: «انتظر، انتظر، شوف كم ولد بس» فوقف حامل الآر بي جي، ثم اندفع ثلاثة عساكر يحملون أسلحتهم الروسية باتجاه

باب الجامع. نظر زياد خلفه وقد اقشعرّ بدنه فلم ير أحدًا من المصلّين، إذ أنّ جميعهم لاذوا، فدعا الله أن يمرّ هذا اليوم على خير.

عندما دخل زياد إلى منزله سمع صوت رصاص. كان الشاب المتحمس حسين ذو الثمانية عشر ربيعاً على موعد مع الموت، أما الباقون فقد لاذوا بالفرار. تقدم الجندي القاتل من الجسد وتبعه الضابط المسؤول، ودارا حول الضحية كالوحوش التي تطمئن إلى قتل فريستها حتى وصلت إلى أنفيهما رائحة الدم النازف على الأرض الإسفلتية. لا مجال للضحية أن تنجو وقد كان التصويب عن عمد إلى الرأس أو الصدر، فهي الطريقة المثلى ليكفّ الناس عن التظاهر، والقبول بالأمر الواقع، حسب التعليمات الأمنية الصادرة.

من أحد الأبواب القريبة أطلّ شيخ كبير ليستطلع الرعب المهيمن للتو على الحي، فصاح به الضابط مشيراً إلى سلاح يحمله بيده: «شايف يا شيخ بارودة الإرهابي، على شوي قتلنا، لكن الجيش بالمرصاد. خذوه لأهلو ليدفنوه بدون ضجة، وإلا سندفنه نحن على طريقتنا».

انتهت الحملة على المدينة مساء، وقد تبين أنّ شابين آخرين كانا قد قررا المواجهة في أحد أكواخ البساتين، قُتلا أيضاً وتمّ دفنهما بدون مراسم الموت المعروفة، وعاد القليل من الشباب الذين اُحتجِزوا في صالة محطة القطار المعطل منذ بداية الثورة.

تزينت الشوارع والأزقة بوقار الصمت اللائق بالموت، وهيمن همس ركيك على منازل المدينة، إلّا من صوت أطفال ما زالوا يعيشون في عالمهم الخاص إلى حين.

كان زياد يجلس إلى جانب زوجته المتكومة على نفسها يخفف عنها وكأنّها أفاقت للتو من كابوس، وبنظرات حائرة بين سقف الغرفة وأرضها كانت تدعو الله أن يزيح هذه المصيبة، ثم سألت زياد: إلى متى سنبقى في هذا الرعب؟

أجابها زياد مشفقاً: نسأل الله أن يكون الفرج قريباً. هل أخذت دواءك؟

أجابته بيأس: أخذته ولكن لا فائدة، مازالت معدتي متشنجة، سأعِدّ لك الشاي وسأشرب أنا شاي النعناع علّه يخفف من آلام معدتي.

باتت الأيام تمر مخيفة وثقيلة على نفوس الناس، فالنهار يمضي في سعي وترقب، وفي الليل حيث يجب أن يحلّ السكون كانت أبواب البيوت تهتزّ على وقع رجّات أرضية قادمة من أماكن مجهولة، لو لم يتبعها أصوات متفرقة من القذائف الضخمة جداً، لقالوا: أنها هزّة أرضية وتتبعها هزات ارتدادية أخرى. في اليوم التالي تصل الأخبار بأن صاروخ سكود ضرب منطقة كذا، وصاروخ أرض أرض ضرب منطقة كذا، والنتيجة انهيار عشرات المنازل فوق ساكنيها، وهروب الكثيرين ونزوحهم للحفاظ على أرواحهم.

كان زياد يشغّل التلفاز ويشاهد القنوات الإخبارية خلسة عن زوجته، قاصداً ألا يزيد معاناتها. ما يُعرض على الشاشات من أحداث لم يعد مجرد

مظاهرات وإطلاق نار وسقوط ضحايا ثم حملهم ودفنهم، ولكن تحوّل إلى أفلام هوليودية لا تُصدّق. طائرات حربية تقصف صواريخها الضخمة، وبيوت وعمارات تنهار مثل علب الكرتون لتتحول في ثوان إلى كومة من الأنقاض. المناظر الرهيبة صادمة إلى درجة أن زياد يقطع المشاهدة ويطفئ التلفاز.

كانت زوجته تفاجئه بمعرفة كل ما يجري من خلال لقائها مع جاراتها، وهذا يعني مزيدًا من الشكوى والألم، لتعتقد بعدها أن مرضًا حقيقيًا ينخر جسدها. قالت له منذ أيام معاتبة:

إني لا أستطيع النوم ودقات قلبي أسمعها بأذني، وما أكلته في النهار على قلّته لفظتْه معدتي، فهل هذا خوف؟ إن الطبيب -بالتأكيد- لم يعرف مشكلتي، فمشكلتي يبدو أنها في قلبي الذي بات يتسرّع على غير العادة، أرجوك صدّقني.

لقد أربكته حالتها، واضطّر لعرضها على طبيب قلبية، ولكن الطبيب لم يجد شيئًا غير عادي، وطمأنها بأنّ المشكلة مجرد تشنجات في القولون، ووصف لها حبة ليبراكس عند اللزوم.

في المركز الثقافي شرب قهوته وعاد إلى نافذة أحلامه، هذه النافذة التي تطلّ على منظر بديع من أشجار الحور والمشمش والتين والكرمة، وكأنها تخصصت باستدراج ذكريات الماضي وأحداثه:

هل تذكرين يا زوجتي العزيزة.. ليلتنا الأولى؟ لقد كنتِ خائفة إلى درجة أنك نمتِ.. نعم نمتِ. لم أكن أعرف أنّ الخوف يبعث على النوم، إلا إذا كان نومك هذا هو السبيل الوحيد ليبعد عنك شبح ما كنتِ تخافين منه. اتّكأتُ بجانبك أنظر إلى عينيك المغمضتين. مسحتُ بيدي على شعرك. تأملتُ شفتيك المضمّختين. وفي ساعات الليل الأخيرة استسلمت. قبّلتُ وجنتيك ونمت. لا أدري كم مرّ من الأيام وأنت تخافين، إلى أن صرتُ أنا أخاف عليك. وبعد أن كُشِف أمرنا في مجتمع لا يرحم، كان لا بدّ من استشارة طبيب، وكان الطبيب الأصلح لمثل هذه الأمور هو الشيخ أحمد، فقد يكون أحد المعترضين على زواجنا -وهم كثر- قد كتب لنا ما يعيق استمرار زواجنا، أو لمعاقبتنا، وكانت هذه الأمور شائعة في مجتمعنا، ومصدر رزق لكل مهووس بالسحر والجن والشياطين. قال لي الشيخ أحمد بعد أن فتح كتابا قديماً عنده: «مكتوب لزوجتك أكثر منك»، ثم أخرج من مصنف أوراقهِ ورقةً منسوخة بخط كربوني، فكتب اسمي واسمك في فراغ بين أسطرها، ثم طواها ووضعها في جيب صغير من القماش تمت خياطته لهذه الغاية، وقال:« ضعه تحت المخدة». فعلتُ ما قاله لي وأنا بين مصدّق ومكذّب، وكسرنا صمت الأشياء رويدًا رويدًا، وعندما صرختِ تأكدتُ أن الجن قد ولّى هارباً إلى غير رجعة، وقد حمل معه كل أحمال الخوف التي كانت تجثم في صدرك. ولكن لماذا يعود الخوف إليك بهذا الشكل؟ يا لحظك التعيس! لقد حرمك الخوف على ما يبدو حتى من الحمل. هل

تعتقدين أنّي لا أخاف أنا أيضاً؟ كلّنا نخاف ولكن بدرجات متفاوتة. إنّ الأحداث التي نمرّ بها تشيب لها الولدان، ولكن ما الذي يمكن أن نفعله؟ هل بقيتْ منطقة آمنة يمكن الهروب إليها؟ لم يبق سوى مناطق معينة ذات لون واحد ليس لوننا، ولا يُسمح لنا بدخولها لأننا متهمون بعد أن تحوّل الصراع إلى صراع طائفي، أو هكذا أرادوا له أن يكون، ليكسبوا معركتهم التي أعلنوها على الشعب الثائر.

في المنزل مساء سألته سلمى:

- هل علِمْتَ آخر الأخبار؟

- ماذا حدث؟

- ابن الأستاذ حسن من الضباط الذين انشقّوا عن الجيش، وقد شكّل كتيبة للجيش الحر من بعض أبناء المدينة المنشقين، وبعض الشباب العاطلين عن العمل.

- منذ أسابيع لم أقابل الأستاذ حسن، لذلك، لا أعلم.

- ليس ذلك فحسب فهم يدخلون إلى المدينة ويخرجون منها كما يحلو لهم، ودون خوف، وهذا يعني أنّ النظام أصبح ضعيفًا. لقد تمركزوا في أماكن مختلفة من المدينة حسب ما تتناقله النساء عن أبنائهن.

- وماذا لو حدثتْ مواجهة بينهما، ألا يخافون أن ينتقم النظام من المدنيين؟

رمت بنفسها على كرسي قريب، وقد لاحظ زياد تغيرًا في ملامح وجهها الذي مال إلى الصفرة، فاندفع نحوها قائلًا:

هل..

قاطعته: لا تخف يا عزيزي هذا التشنج الذي يصيبني كل مرّة لن يقتلني، اطمئن.

قال لها وهو يحضنها من الخلف ويحثّها على النهوض: تعالي واشربي دواءك وتمددي قليلًا وسترتاحين. طبع قبلة على خدّها وتابع: كنت أريد القول أنّ هذا الذي يفعلونه غلط بغلط، كان يمكن أن يواجهوا النظام بعيدًا عن المدنيين. هل انعدمت الجبال والوديان؟ وكأنّ المقصود دمار البلاد والعباد وليس التخلص من هذا النظام الذي لا يرحم. على كل حال سنرى في قادم الأيام ماذا يمكن أن يتصرفوا بعد أن ننصحهم.

جلس زياد إلى جانب زوجته يمسح شعرها، وصراع بين الماضي والحاضر يدور في رأسه، ليتوقف ذهنه عند لحظة استلام تقرير المشفى عن حالتها بعدم قدرتها على الحمل والإنجاب. كان الخبر صادماً لكليهما، وباتت سلمى تعيش حالة شلل في ردة الفعل المناسبة ليرضى عنها زوجها، ولكنّ زياد كان يبادرها في كل مرة مواسياً «لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور». ومع هذا الإيمان بالقضاء والقدر بقيت سلمى كأي امرأة تتوجس من قادم الأيام أمرًا لا يُسِر، فإن حُكم عليها أن تبقى بلا ولد، فما الذي يجبر زوجها أن يتخلى هو الآخر عن طلب الولد؟ فما كان منها إلا أن عرضت عليه مرة أن يطلّقها إن شاء، أو أن يتزوج ثانية إن شاء، ومع أنها كانت تحاول أن تبدو صادقة بكل ما

أوتيت من براعة في عرضها له، ولكنّها كانت تدعو من أعماق قلبها ألّا يوافق على ذلك، وخاصة الطلاق الذي ترى في الحديث عنه مجرد نكتة ساذجة، ولكن لا مانع من سبر أغوار ما يفكّر به زياد. زياد الذي عشقته ولا يمكن أن تتخلّى عنه حتى لو تزوج ثانية. أما زياد فكان جوابه مجرد ابتسامة ساخرة، ولم تتمكن أن تستنتج منها الجواب الشافي. لقد مرت أعوام ولم يغيّر ولم يبدّل، وما زال زوجًا مخلصًا قلّ مثيله. هكذا كانت تتحدث عنه بتفاخر وحب.

****

-3-

في لقاء مع صديقه الأستاذ حسن، استطلع زياد ما يعرفه عن أفكار الثوار ومخططاتهم، وهل يمكن توجيهها بحيث لا تؤدي مغامراتهم غير المحسوبة إلى الضرر بالمدينة وأهلها، وقد تبيّن له أن الثّوار لا يسمعون إلا صوت أسلحتهم، فالمدني لا يعرف من الأمور العسكرية إلّا ما قد تعلّمه في خدمته العسكرية الإجبارية، وتستلزم المدة الطويلة التي مضت على تسريحه من الجيش نسيان ما قد تعلّمه، هذا إذا كان قد تعلّم شيئًا مفيدًا على أحد الأسلحة أصلًا. حججهم كثيرة، فمن لم يخرج على هذا النظام لا يحقّ له التدخّل مهما علا شأنه.

كانت تزداد وتيرة الأحداث الدامية كلّ يوم، فقد ودّعت المدينة عدداً من الشباب يوم أمس. كان بعضهم يخدم في جيش النظام، وآخرون ممن انضمّ طواعية إلى الجيش الحر. يُنعتون حسب موقعهم: شهداء، قتلى، فطائس..

المدينة تغرق في الظّلام، ولم يعد يفارقها إلا في فترات قليلة ومحدودة، كان أحد مظاهر العقاب هو قطع التيّار الكهربائي، وخفض كمية الحاجات الأساسية من الغاز المنزلي والمازوت والبنزين ومواد تموينية أخرى، كالخبز الذي تحوّل لونه إلى لون هذه الأيام، وقوامه كظهر أمٍ فقدت فلذة كبدها، ولم يكن من الأكيد أن يصل في موعد محدد، أو أن تصل الكمية كاملة.

كانت خيوط الفوضى تتسلّل إلى كل ركن من أركان المدينة، فقد انكفأت عناصر الشرطة كلياً إلى مخفرها، بعد أن انكفأت الدولة إلى ساحات الحرب والمواجهة، وسادت سلطة الحر الذي رأى أن يتسلّم حفظ الأمن، وإقامة محكمة عسكرية، وسجن، بمؤهلات أفراده الذين لم يتمّوا تعليمهم، ولم يحصلوا على أية خبرة، ولكن لا تنقصهم الجرأة واقتحام الموت، فالطائرة التي جاءت وقصفت مقرًا لهم بسبب وشاية، تمكّنوا من تفاديها قبل دقائق معدودة، واستعدّوا لقصفها بمضاد طيران متحرك لولا أنّ الطائرة لم تلبث أن عادت أدراجها بعد فشلها في تحقيق هدفها الذي جاءت من أجله.

قصْفُ الطائرة لمكان في المدينة يُعتبَر إيذانًا بعهد جديد من المواجهة مع أهالي المدينة، وهذا ما جعل النّاس تدرك الخطر الجسيم الذي ينتظرها في مستقبل الأيام.

لم يعد لليل سكونه المعهود، فقد تنطلق رصاصة واحدة أو أكثر لتجريب سلاح يباع، أو لمعاقبة جرذان جائع متسلل، أو لسبب غير معروف، لتبلغ الأصداء كل أطراف المدينة وتطيح برتابة النوم وهدوئه، ويصحو كلّ من وصل إليه الصوت إن لم يكن النوم قد هجره أصلًا. عندما سُمِع صوت أول تفجير قادم من وسط المدينة ليلًا، كان ذلك مفاجئًا، فقد كانت أصوات التفجيرات إن حدثت تأتي من خارج المدينة على الطريق الرئيسي، حيث كان من المعروف استهداف الثوّار لسيارات ضباطٍ تلوثت أيديهم بالدماء. ولكن ماذا يعني التفجير داخل المدينة؟ لم يكن يدرك أحد الهدف من

وضع لغم في سيارة التكسي الخاصة بصالح بركات وهي مركونة إلى جانب منزله في الشارع، فالرجل الذي تجاوز السبعين من عمره، -وإن كان قد أمضى حياته في خدمة حزب البعث الحاكم - من المؤكد لدى الجميع أنه لم يكن ليعمل أي شيء يؤدّي إلى ضرر أحد من الناس، بل على العكس من ذلك فقد عُرِف عنه أنّه يقوم بخدمة الجميع قدر الإمكان.

لم يتوصّل حسن وزياد إلى فهم هذه الحادثة التي أسفرت عن تخريب أحد أبواب السيارة، فقد يكون الأمر مجرد تحذير له من أن يتعامل مع النظام، حيث عاد كثير من المتقاعدين المقرّبين واستلموا بعض المناصب التي لا تضرّ إلا بالثوّار وباقي الشعب. وتمضي الأيّام لتظهر وجوه غريبة عن المدينة بين صفوف عناصر الحر، كان الأستاذ حسن يلاحق ابنه ياسر الضابط المنشق ليفهم منه ما يجري، حتى تأكّد له وجود متطوعين مع أسلحتهم من خارج المدينة وهم مكسب لمواجهة جيش النظام على رأي ياسر، وعندما سأله عن مقدار الثقة بهم، كان جوابه: ثقة عمياء.

وفي ظلّ هذه الظروف التي تزداد تعقيدًا، كانت تجري اعتقالات أخرى على حواجز الطرقات أثناء السفر أو بالاستدعاءات الناعمة التي ظاهرها مجرد سؤال، ليغيب المستدعى أيامًا أو أسابيع أو ليختفي إلى الأبد. لا يصدّق الناس أنّ الأمر جاء بمحض الصدفة، فلا بدّ من وجود أصابع وأيادي خفية تعبث في كلّ مكان لتتّهم هذا وتبرّئ هذا عن قصد أو عن غير قصد، ولكن من هي هذه الأيادي؟ وكيف يمكن اكتشافها، أو الإمساك بها

وهي متلبّسة؟ الأمر ليس بهذه السهولة، ويحتاج إلى مخبرين مدرّبين، أو عيون مبثوثة هنا وهناك، وآذان تسترق السمع إلى هذا وذاك، وربط المعلومات ببعضها، ليصار إلى تقديم لائحة اتهام بحقّ فلان من الناس، والعمل على تقديمه للمحاكمة. ولكنّ الثورة لا تنتظر مثل هذه الإجراءات الطويلة، فيكفي أنّ الشخص مازال قائمًا على رأس عمله وخاصّة في القطاعات العسكرية حتى يكون متهمًا، فيُطلب منه الانشقاق، فإن فعل فقد حافظ على حياته، وإن لم يفعل فمصيره القتل. وكذلك مسؤولو الحزب الذين مازالوا يكرّسون كلّ وقتهم للدفاع عن النظام. وفي حالة المدنيين يُنبّه الموالون أو المدافعون بجهل، ولكن لن يُرحَم من ثبت أنّه تعاون مع النظام، أو تجسّس لصالحه. هكذا قام الفكر الثوري بعد أن استعمل النظام كل أدوات القتل المعروفة وغير المعروفة. ليس ذلك فحسب، ولكنّه أمعن في القتل من أجل القتل والانتقام لا غير، بجلبه مرتزقة من حزب الله في لبنان، وتكفّلِ إيران بجلب الباقي منها ومن العراق ومن أفغانستان، بالإضافة إلى جلب كلّ أنواع الأسلحة.

على حين ليلة من الليالي الدامية تأتي أخبار القتل كالصدمة، فالقتل لم يعد سرًا، ولا يحتاج تهديدًا به، ولا ذاك التخطيط الكبير، فالقتل هنا من أجل نصرة المظلومين. هكذا حكم الثوار على المتعاملين مع النظام الذين تسببوا بشكل أو بآخر بقتل أبرياء أو بقتل ثوّار ثاروا من أجل كرامة الجميع.

فرحات بركات، ذلك الحزبي العتيق الذي يحفظ محاضراته عن ظهر قلب، ويتكلم في أفكار حزب البعث الحاكم وكأنّها تسري في دمائه، والذي يدافع عن أفعال النظام وكأنّه ركن من أركانه، وقد كان ساهم بشكل ما في إيذاء أبرياء أو قتلهم، قررت مجموعة من الثوّار وضع حد لنشاطاته المشبوهة. قُتِل فرحات، ولم يستتاب، ولم يُطلب منه التراجع عن أفعاله.طرق أحدهم بابه قائلًا: «ليخرج فرحات أريده قليلًا». خرج فرحات واثقًا من نفسه، وعندما لم يعرف الشخص الطارق قال له: «أنا فرحات تفضل»، فأهداه الطارق عدة طلقات وانصرف. وكذلك تمّ قتل نساءٍ بنفس الطريقة، ونجا فلان، وسيأتي الدور على فلان، وفلان مخطوف من قبل مرتزقة النظام وفلان مختفي، وفلان مات تحت التعذيب..

في مثل هذه الأزمات الخطيرة يتحوّل الكثير من الناس إلى صحفيين، ومذيعين، ووكالات أنباء متنقلة، ومحللين سياسيين وعسكريين واقتصاديين.. كل يوم تُنقل مجموعة من الأخبار لا يمكن لوسيلة إعلامية أن تنقلها بسبب هامشيتها عن الأحداث الرئيسية الكبرى.

مجموعتان من المسلحين اختلفوا، وكانت لغة السلاح هي الحاكم بينهم، لولا أن تدخّل بعض الكبار من العائلتين لما اكتفوا بجريحٍ لكلّ منهم. والسبب الحقيقي غير معلوم بالطبع، غير أن الشهود قالوا أنه مجرد خلافات تافهة على المال أو النفوذ.

كان زياد يراقب الأقوال والأفعال دون أن ينبس ببنت شفة، فالخلافات على أشدّها بين الجميع، ولا اتفاق على شيء، فقد اختلفوا على فرحات، كخلافهم ورأيهم بالنظام. ألم تكونوا تعيشون في هدوء وأمان؟ ما الذي تحصّلونه الآن سوى الدماء؟ لقد خربتم بيوتكم بأيديكم.. كان ذلك دافعًا مرًّا لبعض العائلات لترك بيوتها والهجرة إلى خارج المدينة الصغيرة.

كانت الأخبار تتواصل بتقدم داعش بسرعة كبيرة نحو كثير من المناطق الشرقية بعد استيلائها على مدينة الرقّة. لم تكن أخبارها المتسارعة مطمئنة لأحد من الأهالي، فسمعتها السيئة وصلت قبل وصولها، حتى وإن كانت تفتك بعناصر النظام الذين يفتكون بالمدنيين العزّل. فعندما تتّهم الناس بالردّة فهي تستوجب قتلهم، وبالتالي ما الذي يميّزهم عن النظام! فالكلّ يقتل وفق معتقداته، وإن اختلفت طريقة القتل. زياد كان على وعي تام بما يجري، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله بمفرده؟ كان يفكّر بحماية المدينة، ثم تلاشت أمانيه إلى حماية نفسه وزوجته إن تمكّن من ذلك على الأقل.

- آه يا زوجتي ما أعجزني اليوم وأنا لا أملك حتى حماية نفسي. ثم تنهّد.

- هل قلت شيئًا؟

انتبه زياد إلى أنّ زوجته قد سمعت كلامه دون أن تفهم ما يقول فاستدرك: أيتها الحبيبة أفكّر أن أستنبت جناحين قويين لأتمكّن من حملك

والطيران بك إلى الأقاصي، حيث لا نسمع أيّ حكاية من حكايا البشر، هناك نعيش وحدنا آدم وحواء.

- والله فكرة، لكن كيف سنمتنع عن الأكل من الشجرة.

- لا أعتقد أنّا سنقبل بالأكل منها ونحن على علم بما حصل لأبينا وأمنا وخروجهما من الجنة.

- أما ترى أنّ الناس لا تتّعظ بما حصل نتيجة الثورات في دول أخرى.

- حبيبتي سلمى أنت على علم وثقافة، وقد قرأتِ عن الثورات في الغرب والشرق، إنها سنّة التدافع في هذه الحياة، فلا يمكن أن يستمرّ الظلم إلى الأبد، وحتى يزول هذا الظلم لابدّ من تقديم التضحيات، إنْلم يكن من أجلنا فمن أجل أولادنا.

ساد الصمت.. وعندما لم يلقَ جوابًا، انتبه إلى سلمى وهي تمسح دموعها التي سالت سخية ودون عناء، ولكنّها كافية لتشيح اللثام عن مدى الألم الذي يعتصر قلبها، لأنّها لم تحمل الولد الذي كانت تحلم به، ليكون لحياتهما معنى ككل الناس. مسح خديها بيديه مشفقًا ومواسيًا قائلاً:

- إنها إرادة الله، ويجب أن نرضى بذلك، وما أدراك يا حبيبتي؟ فقد يكون ذلك خيرًا لنا، أما تريدين الرحيل؟

- يا ليت يمكننا المغادرة إلى أي مكان آمن حتى لو كان مغارة.

- إذًا سنغادر صباحًا.

- هل أنت جاد؟

- نعم سأترك المركز الثقافي والعمل فيه ونذهب إلى الشمال.
- أي شمال هذا؟ وهل توجد جهة في البلد آمنة؟
- سنذهب إلى الشمال كخطوة لا بدّ منها ثم نقرّر بعد ذلك.
- وكيف سنصل إلى هناك؟
- اطمئنّي، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

كان الطريق الأسهل للخروج إلى مناطق الشمال، ذاك الذي يعبر المساحات الواسعة من أراضي القرى والمدن في المنطقة الشرقية من سوريا، والتي سيطرت عليها داعش، داعش التي باتت قريبة جدًا من حدود المدينة. لم يكن الأمر يتطلّب أكثر من لباس ساتر للوجه واليدين وسائر الجسم بالنسبة للنساء، وهم يرحّبون بخروج النّاس من مناطق دولة الكفر إلى مناطق الدولة الإسلامية كما يدّعون.

لم تكن الحواجز المقامة على الطرقات تزعج الناس كما هي في حواجز النظام، والذين يفترض بهم أن يكونوا عونًا للناس ويساعدوهم ويحموهم، بل على العكس، فالكلّ متهم، حتى وإن أثبتوا براءتهم. سيقف الشخص بين يديهم للتحقيق، من أين؟ وإلى أين؟ وإلى أن تظهر نتيجة فحص الهوية والتفييش والتفتيش، ينشف الدم في العروق.

كان أحد مالكي الباصات قد وجد عملًا مربحًا في نقل الناس الراغبين بالعيش في كنف تنظيم الدولة الإسلامية، أو في منطقة الدانا المحررة من قبضة النظام قرب الحدود التركية.

براري شاسعة مقفرة بلونها الصحراوي، إلّا من حواجز قليلة متباعدة بُعْدَ المدن والبلدات، ينظرون في بيانات الناس الهاربة إلى المجهول، ويفتّشون حقائبهم التي لم يكن فيها على الأغلب سوى الثياب، ثم يسمحون لهم بالمرور. مضت عدة ساعات في السيارة وهم يشاهدون أرضًا لم يكونوا ليفكّروا يومًا بعبورها.

تلال ووديان، وقليل من بيوت الشعر وبعض رعاة الغنم. كان صوت محرك السيارة يشقّ الصمت بضجيجه المُجْهَد في الطرقات الصاعدة بين التلال، ثم ينخفض وكأنه يلتقط أنفاسه في المنحدرات. ويعلو صوت بكاء طفل رضيع متذمرًا من الحرارة داخل السيارة، وبعض الهمس يجري بين الركاب تعبيرًا عن قلقهم من قادم الساعات، هل ستلاحقهم طائرة؟ هل سيضربهم صاروخ؟ هل سيصلون بأمان؟ كيف سيعيشون؟ أسئلة تكشف عظم المأساة التي بدأت مع أول رصاصة أطلقها النظام على الثورة رافضًا أي تراجع عن استعباد الناس والدوس على كرامتهم، في دولة عريقة أراد لها أن تكون مجرد مزرعة يتصرف بها كما يحلو له، وإلّا كيف يترك الناس مدنهم وأرزاقهم وذكرياتهم؟

في مدينة المنصورة أوقف السائق سيارته قرب استراحة صغيرة، ليبرد محرك الباص ويتزود الركاب بالطعام والشراب ويقضوا حاجاتهم. اقترب زياد من رجل عجوز يجلس على مصطبة حجرية أمام أحد البيوت القريبة، سلّم عليه واستأذنه بالجلوس، فرحّب به العجوز وقد توقفت أصابعه عن

تحريك حبات السبّحة، مشيرًا إلى المصطبة ليجلس بجانبه. كان زياد يريد أن يتعرّف على أحوال الناس هنا بعيدًا عن قبضة النظام، وضمن المنطقة التي تسيطر عليها داعش، هذا الاسم الذي لا يستطيع أحد أن يتلفظ به أمام أحد من عناصرها، فقد أصبحوا دولة العراق والشام. وقال في حديثه مع زياد وقد أخفض صوته: يا ابني إنّا نهرب من الدب لنقع في الجب، وإذا ما حلّها رب العالمين فالأمور من سيء إلى أسوأ، اذهبوا إلى مناطق لا يسيطرون عليها فمن الصعب أن يتحمّل الناس أفكارهم الغريبة والعجيبة.

أراد زياد معرفة المزيد عن تصرفات هذا التنظيم فحثّ الرجل العجوز على المزيد من الشرح. نظر العجوز بعينيه الغائرتين في محجريهما الداكنين إلى يمينه ويساره وقال: هناك في الاستراحة جلس شاب قادم من مناطقكم، وكان يلبس بنطال جينز، وقد صادف مرور دورية لهم، فقالوا له عليك بتبديل هذا البنطال، وعندما أخبرهم بأنه لا يملك غيره، ناولوه مقصًا وطلبوا منه تقصيره إلى الكعبين، وقد فعل، بل قصه وبالغ في القص حتى أخذ منه قدر نصف الساق. تفاجأ زياد من هذه الدولة التي تشوّه حياة الناس وتشوّه معتقداتهم، بل صُدِم حينما أخبره العجوز بأنّ هذا لا شيء، وسيسمع ويرى العجب العجاب، فنحن نعيش في آخر الزمان.

أطلق السائق زمور الباص إيذانًا بانتهاء الاستراحة ومتابعة الرحلة من جديد. ودّع زياد الرجل العجوز على عجل وطلب منه الدعاء لهم في رحلتهم الذاهبة في المجهول. كانت سلمى قد بقيت برفقة النساء خلال فترة

الاستراحة، فهمس زياد في أذنها أثناء جلوسهم في الباص: كيف تجري الأمور؟ ابتسمت قائلة: إذا لم يحصل أي مكروه فستكون الأمور بخير إن شاء الله. لم يتحدث معها بما سمعه من الرجل العجوز، ولكنه آثر أن يظهر لها أن الأيام القادمة ستكون بخير بإذن الله بعد أن لاحظ أنها الآن بحال أفضل من ساعة خروجهم من المدينة.

قبيل الوصول إلى مدينة الباب ورغم صوت محرك السيارة العالي كان يُسمع صوت طائرة تغير، انقبضت قلوب الركاب وعلا صوتهم بالشهادة، وبكت بعض النسوة، وقاومت سلمى إحساس التقيؤ اللاإرادي نتيجة الخوف، ناولها زياد كيس النايلون محتاطًا. أبطأ السائق من سرعة الباص، وحاول تهدئة الركاب: «القصف بعيد يا جماعة اهدؤوا لِمَ هذا الخوف»؟ ثم توقف إلى جانب الطريق وقال: «انظروا هناك، إلى الشمال قليلًا من شجر الحور ذاك، يظهر دخان القصف المتصاعد، بيننا وبينه نصف ساعة على الأقل. يبدو أنها طائرة روسية أو من طيران التحالف ضد التنظيم، لعن الله الحروب وقاتل الله الظالمين. لا تنزلوا من الباص الآن، سنواصل السير، وهذا أكثر أماناً لنا. توكلنا على الله».

عندما اقترب الباص من المدينة على الطريق الرئيسي، كانت الطائرة قد استهدفت الحاجز المقام على مدخلها، فالنار والدخان مازالا يتصاعدان من عدد من السيارات التابعة لداعش، ومن سيارة مدنية كانت تقف على الحاجز. كانت عناصر أخرى قد سمحت للسيارات القادمة بتغيير طريقها

إلى طرق فرعية بحيث لا تبدو متكدسة على الطريق العام فيتم استهدافها. شهق الركّاب عندما رأوا منظر الآليات المحترقة مرددين الحوقلة، ويا لطيف ألطف. ابتعد الباص مكملًا طريقه بعد تفتيش سريع، وسلمى التي شعرت بالخوف تبذل جهداً في تهدئة معدتها التي تريد أن تخرج من فمها على حد قولها، وكان زياد يخفف عنها لتتجاوز أزمتها، فقد تأكّد له أنّها باتت مشكلة نفسية وستطول، ولابدّ من الصبر.

يواصل الباص السير على طريق معبدة قديمة، تصل بين قرى صغيرة خضراء جميلة، لا يعرف إن كانت مسكونة بالإنس أو الجن.

- الآن نودّع أرض داعش لندخل أرض جبهة النصرة ومن ثم أرض الجيش الحر دون أن نقترب من أرض سيطرة الأكراد في الشمال. قال السائق محدثاً من حوله.

- قال أحدهم متهكماً: من الجيد أنهم لم يغلقوا حدودهم بعد، ولم يطالبونا بتأشيرة دخول.

- انظر إلى هذه التلال الترابية والتي أعتقد أنها مرشحة لتكون بوابات بينهم في قادم الأيام. قال السائق متشائماً.

الدانا مدينة مزدحمة بالنازحين ولم تأخذ نصيبها من التنظيم والعناية الإدارية، فيها طريق رئيسي معبد، والطرق الأخرى ترابية حجرية ضيقة ومتعرجة. الساعة التاسعة ليلاً حيث توقف السائق مهنئاً الركاب بوصولهم بالسلامة.

كان بعض القادمين قد نسّقوا مع أقارب أو أصدقاء لهم، أما زياد وزوجته فقد أتيا دون تنسيق مع أحد، وكانت غايتهم الخروج من المدينة فحسب. حملا حقيبتهما الصغيرة وسارا باتجاه السوق القريب، وقفا أمام مطعم صغير يقدّم سندويش الفلافل. فوجداه الخيار المتاح ليُذهِبا القليل من عناء السفر وشيئاً من وحشة الليل ويألفا بعضاً من غربة المكان، ويسكتان معدتيهما الخاويتين.

- الحمد لله على السلامة، واضح أنّ سفركما كان طويلاً؟

- نعم، صحيح، هل يوجد فنادق هنا؟

- لا، ولكن يوجد شخص اسمه أبو ملحم، عمل من بيته الواسع ما يشبه الفندق ليفيد ويستفيد، وأسماه البيت الفندقي. يمكنكم المبيت في غرفة عنده، إنه قريب، على بعد خمسين متراً من الشارع المقابل.

- تمام، سنذهب إليه، شكرًا لك.

باتوا ليلتهما في غرفة متواضعة عند أبي ملحم بعد أن قدّم لهما الشاي، ووعدهما بالمساعدة للحصول على خيمة في مخيم دير حسّان القريب. لم يأخذا وقتًا طويلًا حتى ناما بسبب تعبهما من السفر الطويل بالباص، ولكنّهما استيقظا قبل شروق الشمس بوقت طويل.

- من الطبيعي القلق في مثل هذه الحالات، ولكن ليس لدرجة الخوف، نحن الآن بأمان إن شاء الله. حاولي النوم ثانية، أعتقد أن أبا ملحم سيساعدنا بالحصول على خيمة غدًا.

- وماذا لو لم نحصل على خيمة؟

- نعود إلى هذه الغرفة ثانية حتى يتم تأمين الخيمة، لا تفكري كثيرًا. هل شربْتِ دواءك؟

- شربته طبعًا، وإلا لما كنت نمت.

أصبحت سلمى سوداوية النظرة والأفكار منذ أصابها المرض، والذي تزامن مع الأحداث القاسية والمأساوية للناس نتيجة الثورة، كان زياد يحاول أن يخفف عنها قدر المستطاع، ولا يظهر لها تبرّمه من سلوكها وأفكارها السلبية.

في اليوم التالي كان أبو ملحم قد تمكن من الحصول على خيمة لهما في مخيم دير حسان، وهذا ما جعل زياد يثق به ويطلب منه أن يكونا صديقين، علّه يتمكن من شكره وردّ الجميل له في قادم الأيام.

عدد كبير من الخيم المتواضعة، تضم عائلات من عدة مناطق مختلفة، هربوا من أتون الحرب الدائرة فوق بيوتهم وأرزاقهم، اجتمعوا في هذا المكان يتقاسمون البؤس والشقاء وشظف العيش. رضوا بالحد الأدنى من مقوّمات الحياة دون الخدمات التي يحتاجها كل كائن حي. إنّها الحرب التي لا تبقي ولا تذر، وتجعل الإنسان يتخلى عن كل متاع الدنيا في سبيل الحفاظ على حياته وحياة أولاده. كانت قصصهم وحكاياهم تتسللّ شيئًا فشيئًا إلى الدفتر الأسود الذي مازال يحتفظ به زياد. لا يدري لماذا يرهق نفسه بالتأريخ، هل يريد لذاكرته ألّا تنسى؟ قد يرغب الإنسان بتسجيل لحظات السعادة التي قد لا

تتكرر، ولكن لماذا يسجّل كل هذا الأسى؟ ولمن يريد أن يورّث ذاكرته المليئة هذه؟ تذكّر أنّه محروم من الأولاد، فهل يكون الحرمان هو نعمة أنعمها الله عليه بهذه الظروف؟ يعجز الإنسان أحيانًا عن التمييز بين النعمة والنقمة، بين الحرمان والوهْب.

وقف زياد بجانب خيمته في صباح هذا اليوم الخريفي يتأمل تراصف هذه الخيم المتواضعة: ماذا لو كانت معسكرًا ترفيهيًا؟ يا ليتها كانت.. لانتهت خلال أسابيع على أكثر تقدير، ولكن قدّر الله وما شاء فعل. هنا تموت الأحلام، فكل ما يسعى إليه الإنسان أن يأكل ويشرب وينام، لا يريد أن يشعر بألم، لأنّ هذا الذي يعيشه هو الألم نفسه. لا يريد أن يمرض أو يمرض أحد من أفراد عائلته، فلا أطباء ولا مستشفيات ولا عيادات، بعض النقاط الطبية البسيطة التي تقدم بعض الأدوية التي يمكن الاستغناء عنها لو توفرت بعض الأعشاب التي كان يستخدمها الأجداد. وماذا يتعلّم الأطفال هنا؟ وكيف يلعبون؟ وهل يعيشون طفولتهم أم كبروا مع هذه الظروف الاستثنائية؟ استثنائية قال! إنها منذ أربع سنوات وقد تدوم سنوات وسنوات. شعب يُهَجّر لأنه رفض الظلم، ورفض أن تبقى كرامته مداسة، والعجيب أنّ العالم لا تحركّه مثل هذه المأساة الكبيرة، إنّهم يسكتون وكأنّهم راضون، رغم معاناة بعض الدول من الهجرة والشكوى منها ومع هذا لا يسعون بشكل جدي من أجل القضاء على أساس المشكلة؟ وإلّا لماذا تُصرف الملايين من الدولارات على المخيمات؟ الحل الحقيقي

لمشكلتنا أسهل بكثير من هذا الإذعان، ولما كانت داعش وأشباهها ظهرت، ولما امتلأت الدولة بمرتزقة العالم. الكلّ أصبح جهاده المقدس على أرضنا، حتى الجيش الروسي أصبح يأتي مباركًا برجال الدين المسيحي.

ما أغرب ما نحن فيه! هل يمكن تصديق ما يجري؟ شعب ثار بسبب الظلم والقهر والتمييز الطائفي، جابهه النظام بالنار والدمار، انبرى شباب للدفاع عن أهاليهم، وتبعه انشقاقات من الجيش وانحياز للشعب المظلوم.. كاد أن يسقط النظام، لولا إيران ومرتزقتها، رغم أنها لم تصنع فارقاً..لتأتي روسيا بترسانتها العسكرية القديمة والجديدة، وكاد الفشل يلاحقها هي الأخرى لولا سياسة التدمير الشامل، ثم جاء دور القاعدة وداعش ليتداعى المحبون لهم من كل أرجاء المعمورة إلى سوريا، ولتأتي التعليمات والإفتاءات الغريبة والعجيبة بأن الجيش الحر مرتد، ومحاربته أولى من محاربة النظام، ومن لم يقبل بهم من الشعب السوري مرتد أيضاً، هل هذا صدفة؟ ولماذا يشترط الأمريكي على بعض فصائل الجيش الحر بمحاربة داعش دون النظام لكي يدعمه بالمال والسلاح؟ هل هذا صدفة؟ وتدخل بعض الدول العربية إلى جانب الثورة علنًا، وإلى جانب النظام سرًا لاختراق الجيش الحر والقضاء على قادته، وعدم الاتفاق على اندماجه ووحدته، هل هذا صدفة؟ أكاد أصاب بالجنون. كان زياد يحدّث نفسه.

****

-4-

رغم الدواء الذي كانت تأخذه سلمى بشكل يومي، إلا أنّ حالة من الخوف والاكتئاب تسيطر عليها بين فترة وأخرى، تندب حظّها أنها بهذه الحالة من الخوف غير المبرّر، ومن ابتلائها بشرب هذا الدواء الذي يبدو أنّ لا نهاية له. تحاول جهدها أن تكون قوية مقابل الأخبار السيئة التي تسمعها، أو مقابل ما تتخيّله من أحداث قد تجري في المستقبل ولكن لا فائدة، حتى إن قلقت يومًا لسبب ما، أو تأخّر نومها ليلًا تصاب بالهلع وتسرّع القلب، أو بتشنّج القولون والغثيان. بعد استشارة الدكتور النفسي الوحيد بمدينة الدانا أصرّ أن تلتزم بأخذ الدواء دون انقطاع، مع ضرورة مراجعته إذا شعرت بأي تحسن أو تراجع لحالتها. بعد هذه السنوات وصل زياد معها إلى حالة من الملل، فلم يعد قادرًا على مساعدتها لتتجاوز مرضها الذي بات يعتقد أنّ لا شفاء منه حتى وإن عادت حياتهما إلى طبيعتها في مدينتهما أو في أي مكان من العالم. لكنّ زياد لم يغير معاملته معها أبدًا خلال تلك السنوات، فهي زوجته التي يحبها رغم ما أصاب علاقتهما من برود، وفتور، وجفاء عاطفي.

بعد أسابيع من الاعتياد على العيش في المخيّم توسّعت علاقتهما مع الجيران في الخيم القريبة، وتشارك الجميع أحزانهم، ولحظات فرحهم، وتناقلوا الأخبار التي يسمعونها من القادمين والغادين.

كانت الأخبار تتوارد باشتداد القصف على المناطق التي تسيطر عليها داعش، وصعوبة خروج كثير من العائلات أو هروبها من تلك المناطق، سواء بسبب القصف أو منع عناصر داعش لها من الخروج. ولكن عندما تتساوى الحياة مع الموت البطيء تكون المغامرة هي السبيل الوحيد للمفاضلة بينهما، فإما أن يحيا الإنسان بما يليق به كإنسان أو الموت السريع هو الخلاص بدل هذا الجحيم الذي يقال فيه فلان حي يرزق. كانت مغامرة حقيقية لوصول عدة عائلات من تلك المناطق المحاصرة إلى المخيم. التراب يغطي أحذيتهم، وثيابهم بالية، والشعر الأشعث الطويل على رؤوس أطفالهم، يشي بطول الفترة التي أمضوها هناك بقليل من الماء، وأجسامهم النحيلة وهمتهم الفاترة تشي بشح الغذاء. لم يتمكنوا من الوصول إلى هنا إلا بعد تبرع أهل الخير بسياراتهم ومجازفتهم الدخول إلى تلك المناطق الخطرة التي تنبعث منها روائح الدم والظلم والموت.

كان الموت والتهجير يلاحق الناس في كل المناطق من سوريا إلا من كان متجانسًا مع النظام، هكذا قالها رأس النظام: «حصلنا على مجتمع متجانس». وهل توجد أسرار لما يجري في القرن الواحد والعشرين؟ لم يبق أي سر مدفون، فالهواتف النقالة المتواجدة مع الكبير والصغير، والإنترنت الفضائي الذي انتشر كما انتشرت اللواقط الفضائية من قبل، فضح كل الأسرار.

الأحداث بكل قسوتها والتي تجاوزت أفعال الحيوانات الكاسرة كانت تُنقل بالصوت والصورة. لم تعد المقارنة مع الحيوانات الكاسرة مقبولة، وخاصة

أنها تقتل لتأكل كما قدّر الله لها أن تتغذى على بعضها البعض، فيموت الضعيف وبعض الصغار إن لم يُكتب لها النجاة. أما ما يحدث هنا فليس له أي وصف إلا الإبادة الجماعية التي يسكت عنها العالم. كان زياد ينسى نفسه طويلًا وهو مستغرق في هذه الأفكار، فيجلس أمام خيمته مربعًا وقد أسند خدّيه إلى كفّيه، ومرفقيه إلى فخذيه، ونظره شاخص أمامه إلى الأرض، فلا يرفع رأسه إلا للردّ على سلام أحد الأشخاص العابرين في المخيم.

بالقرب من خيمته كانت عين واحدة تراقب زيادًا من ثقب صغير طوال الوقت، «يا له من رجل! صحيح أن تصرفاته غريبة وعجيبة، لكنه وسيم، يتحرك بشاعرية، ويتكلم بهدوء الفلاسفة. إني أحسد زوجته، فهو أول رجل أسمع أنه لا يتزوج ثانية رغم عدم إنجاب الأولاد، لا بد أن زوجته قد عملت له سحرًا ثقيلًا كما تتحدث النساء»! إنها ليلى التي تعيش مع طفلها الصغير وليد ذو العامين ونصف في الخيمة القريبة المقابلة، كانت قد استقرت في هذه الخيمة قبل شهرين من قدوم زياد وزوجته بعد عودتها من تركيا برفقة طفلها. أثناء لقاءاتها مع سلمى لم تُخفِ عنها شيئًا فقد ارتاحت لها وتبادلت معها أحاديث خاصة:

- كان زوجي قد انضمّ إلى إحدى الفصائل التي تشكلت للدفاع عن بلدتنا في إدلب، وبسبب القصف الشديد وتهديد جيش النظام بالدخول إلى البلدة نزحنا إلى مدينة سرمدا، ولكن بقي زوجي مع فصيله إلى أن تمّ الهجوم

عليهم من قبل جبهة النصرة. سكتت قليلاً وكأنها تتذكر شيئًا ثم استدركت: لم يعد، ولا أعرف هل هو حيّ أم ميت.

كانت ليلى تتكلم بصلابة وكأنها تتحدث عن أحد ما لا تعرفه، مما أثار فضول سلمى

- وماذا يقول لك قلبك؟

تنهدت وقالت:

- بصراحة لا أعرف، وقلبي مات من زمان.

- كيف مات من زمان، ما زلتِ بأول عمرك!

قالت بسخرية:

- لم أر فيما مضى من حياتي أيّة سعادة، فهل سأعيش وأرى؟

قطبت سلمى حاجبيها وقالت:

- ليلى، لا أفهمكِ، تكلّمي هل تخفين شيئًا؟

- تعرفين أني لا أخفي عنك شيئًا، فقد كنت أرفض الزواج إلى أن تخرجْتُ من الجامعة، وخوفًا من أن أكون في زمرة العوانس، زوّجني إخوتي لأوّل عريس طلبني بعد التخرج، لم يكن جامعيًا، وليست هنا المشكلة، بعد أشهر اكتشفت أنّ له علاقات مع نساء، وعندما كنت أعترض كان يضربني، هكذا يريدني قطعة أثاث في البيت دونما إحساس.

- الآن فهمت، ألم ير ابنه؟

- كان عمره حوالي شهر عندما ذهب ولم يعد.

- وتركيا، كيف ذهبْتِ إلى تركيا إذن؟

- هذه حكاية أخرى سأحكيها لك لاحقًا، أعتقد أني تأخرتْ وقد أخذت كثيرًا من وقتك، وقد يأتي زوجك ليرتاح.

- كما تشائين حبيبتي، مع السلامة.

كانت ليلى تهمّ بالخروج عندما أراد زياد الدخول إلى الخيمة، تبادلا النظرات والسلام، وأفسح لها المجال للخروج وهو يمسح بيده على رأس وليد. لم تكن المرّة الأولى التي يرى فيها ليلى، فقد تعارفا من قبل في إحدى زياراتها، ولكن لا كلام بينهما إلا السّلام كما تقتضي العادات والمجاملات، أما هي فكانت تتمنّى لو تجلس معه وتبادله الأحاديث ولو بحضور سلمى، ولكن كان يخرج من الخيمة عند قدومها لعدم الإحراج.

عندما تزوجتْ ليلى ظنّتْ أنّ زوجها سيحنو عليها، تسند رأسها إلى صدره باطمئنان، وتنام دونما قلق، يقاسمها همّها، يطفئ لواعج قلبها، وجذوة الشوق في أعماقها، ولكن خاب ظنّها، وشعرت بالظلم والشقاء. وبعد أن تعرّفت إلى سلمى وزياد، صار زياد جزءًا من تفكيرها، وكأنّ الزوج الذي كانت تحلم به يشبه زياد، يحمل صفات زياد، زياد آخر، ولكن.. موقنة بتشابه الأشخاص وتتمنى لو وجدوا طريقة لنسْخِ الطباع.

زحف برد الشتاء مبكرًا هذا العام، كانت الاحتياطات المتخذة لمواجهة الأمطار هي إصلاح ما أمكن من تهالك الخيم، وإحاطة جوانبها بقليل من مساند ترابية، وبعض الحجارة المنقولة من أطراف المخيّم الكبير. في ليلة

مباركة لا ينتظرها من أُقتلِع من أرضه كنبتة طفيلية وألقي به هنا كيفما اتفق، كان الرعد يصمّ الآذان، وأصبحت بعض الخيم تغوص كمزارع الرز إلى وسطها، ومنها من لم يكن قادرًا على الثبات فسار كقارب قديم محطم إلى مقبرته. عمّت الفوضى أرجاء المخيّم، وغالبت أصوات الناس صوت الرعد الهادر، وكشف لهم البرق ظلام ليلهم، ليروا عِظَم ما هم فيه من كرب وبلاء، فلجأوا إلى الله يجبرون خواطر بعضهم البعض، ليقضي الله أمرًا كان مفعولا، وأدخلوهم إلى خيمهم التي كانت أفضل حالًا في أرض مرتفعة بنيت عليها.

لم تكن خيمة أم وليد من بين تلك الخيم التي أصابها الضرر تلك الليلة، ولكنّ الخوف كان سببًا في انتقالها مع طفلها إلى خيمة زياد وسلمى. صحيح أنهم كانوا قد وضعوا ساترًا يفصل مكان نوم زياد في الساعات المتبقية من الليل، ولكنها كانت المرة الأولى التي شعرت فيها ليلى بأمان بعد أن فارقها هذا الشعور سنوات.

في الصباح تحلّقوا حول طعام الفطور، سِحْر اللقاء لم يكن حلمًا بل جاء بعد ليل كارثي. من بين الآلام يولد الأمل في الحياة، وينبثق النور في نهاية النفق المظلم. «لن تحتاجين أيّ شيء فنحن أصبحنا عائلة واحدة». قالت سلمى وهي تطعم الطفل بيديها. ابتسمت ليلى موافقة وقد طأطأت رأسها خجلًا، ثم دعت لهما مرتبكة بالحفظ والرضى، وقد أنقذها صوت هاتف

زياد لتعود إلى طبيعتها. كان اتصالًا عبر الواتساب لرقم غير مسجل في الهاتف فاستأذن زياد وخرج من الخيمة وهو يقول: خير إن شاء الله

- ألو.

- صباح الخير يا أستاذ زياد أين أنت يا رجل؟

- أستاذ حسن؟ قال متفاجئًا.

- نعم بشحمه ولحمه لقد أصبحت في الدانا منذ يومين أما زلت هنا أم..؟

- هنا في مخيّم دير حسان، الحمد لله على السلامة. ماذا عن ياسر؟

- ياسر أتى أيضًا، نتكلم بهذا بعد اللقاء، أنتظرك عصرًا وسأرسل لك الموقع، تعال أنت وسلمى.

- إن شاء الله.

عاد إلى داخل الخيمة بوجه باش وقال مخاطبًا سلمى: لقد وصل الأستاذ حسن وعائلته إلى الدانا وسنزورهم مساء.

أجابته مازحة: الحمد لله، سيفارق الحزن وجهك أخيرًا، لقد جاء صديق العمر.

خرج زياد لبعض شأنه لتعود سلمى إلى مواصلة الحديث مع ليلى وسؤالها عن ذهابها إلى تركيا. ردت ليلى: أظنّ أنّي سأوجع رأسك بحكايتي، لذلك ابتلعي حبة بنادول سلفًا. ضحكتا، ثم تابعت ليلى: عام ونصف مع زوجي لم أكن إلا خادمة له ولأهله، ثم نزحنا إلى سرمدا، فكان يتفقدنا كل أسبوع أو أسبوعين إلى أن اختفى بعد هجوم جبهة النصرة على فصيلهم، لم يصلنا خبر

مؤكد عنه، بقيت وحيدة أنا وطفلي ولا يهتم لوجعنا أحد. انتظرتُ صابرة عدة أشهر وفقدتّ الأمل بعودته.

أجهشت بالبكاء فاحتضنتها سلمى مواسية وطلبت منها التوقف عن الحديث إن كان يثير حزنها. قالت ليلى بصوت متهدج: سأشرب ماء ثم أكمل، أريد أن أفرغ ما في داخلي، لقد مضى زمن طويل وهمومي حبيسة صدري. مسحت دموعها وتابعت: لو كان أبي وأمي أحياء لعدت إليهما، ولكن إلى أين أعود؟ هل أعود إلى إخوتي الذين زوجوني ليتخلصوا مني؟ لقد قررت الهرب إلى تركيا مع عدة عائلات بعد أن سمعنا أن الدخول ليس صعبًا، ويحتاج فقط إلى بعض المال. لدي خاتم وأقراط ذهبية اضطررت إلى صرفها وجازفنا ودخلنا عبر مهربين محترفين في جنح الليل. تعذبنا قليلًا في السير وخاصة أني كنت أحمل طفلي بين يدي، ولم يكن طريقًا عاديًا، فقد كان السير عشوائيًا، حفر، أشجار، زرع وسواقي.. ودخلنا، وبعد سويعات كنا في هاتاي. لم أكن أعرف أحدًا، ولا أين أذهب، فأوصلوني إلى دار أيتام في ريهانلي. كانت الدار مكفولة من إحدى الجمعيات، وفيها عدد من النساء مع أولادهن الصغار. ساعدوني في الأيام التالية باستخراج بطاقات الحماية المؤقتة، وواجهتني مشكلة عدم تسجيل وليد فليس لدي ما أثبت أنه ابني، فاضطررنا إلى تزوير شهادة ميلاد حتى حصلنا له على بطاقة..

(صوت طائرة) ليلى تحتضن طفلها، وسلمى تصمّ أذنيها بكفيها.

في حضرة صوت القتل والتدمير، تكاد لا تسمع همسًا إلا الدعاء إلى الله، حتى تكاد الأنفاس أن تتوقف من هول ما تفعله الطائرات. كان القصف يستهدف مناطق ليست بعيدة، ثم تكشف الأخبار القادمة بالصوت والصورة عن استهداف المدنيين في مناطق يراد لها أن تكون فارغة، أو هي سياسة القضم المتتالي للمناطق التي يتبعها العدوان الروسي الداعم للنظام. بيوت تنهار فوق ساكنيها، فمن لم يمت بالأسلحة مات تحت الأنقاض، ومن لم يمت تحت الأنقاض سُحب مشوهًا وعاش معاقًا، ومن قُدّر له أن يخرج سليم الجسم خرج معتل العقل.

في تلك اللحظات القليلة اختطف الهلع لون وجه سلمى وجعلها تشعر بحاجة ملحة إلى التقيؤ، وحاولت مقاومة إحساسها بوضع يدها على فمها، ما جعل ليلى تنتبه إلى مشكلتها وتقترب منها كأم رؤوم، ثم مسحت على كتفيها مواسية ومستفسرة إن كان حدث لها أي شيء، وهل تحتاج إلى مساعدة، فأشارت سلمى برأسها أن لا. وساد الصمت عدة دقائق حيث استعادت سلمى توازنها، وشربت القليل من الماء الذي امتزج ببعض دموعها وقالت: إنها الحرب اللعينة يا ليلى، لقد أفقدتني توازني، وقضت على هدوء حياتي، وبات الخوف يلاحقني فلا أستطيع النوم إلا بابتلاع حبوب مهدئة. قالت ليلى: لستِ وحدكِ التي تخافين، كلّنا نخاف، ولكن يبدو أنّ لديك حساسية زائدة قليلًا في موضوع الخوف، إنّ هذه الحرب لن تترك أحدًا دون أن تعطبه على نحو ما. نرجو الله أن ينظر لحالنا ويخلصنا منها

بأسرع وقت. ثم استدركت ضاحكة محاولة أن تغيّر الموضوع من أجل سلمى: أما زلتِ تريدين معرفة سبب رجوعنا من تركيا؟ ابتسمت كابحة دموعها وقالت: بالتأكيد أريد.

كان وليد كغيره من المواليد الجدد بدون قيد نفوس بسبب الحرب والتهجير، فالحروب لا تعترف بالحياة أبدًا، إنما تحصي بأرقام مشوهة أعداد الموتى، وكلفة إعادة الإعمار، ونسبة جودة القتل في الأسلحة، ونسبة انتعاش الاقتصاد لأصحابها. هكذا هي الحروب، «مصائب قوم عند قوم فوائد».

في دار الأيتام التي تشرف عليها إحدى الجمعيات الخيرية يسود الأمان المفقود في الوطن وبين الأهل والجيران، وتتوفر كل وسائل الرفاهية للنساء والأطفال، ومن أرادت الزواج فهي قادرة على ذلك بمحض إرادتها، وتُزفّ بدهن العود والورود، وتخرج من الدار معززة مكرمة. الأحلام هنا بلا حدود، حتى إن كان المطلوب الخروج إلى أوروبا أو إلى كندا فيمكن تقديم الطلب في مكتب الهجرة في الدولة التركية، وتتم دراسة الحالة والتقييم واصدار القرار.

أكملت ليلى قائلة: كنت فرحة بإخراج بطاقة تثبت أنّ وليد هو ابني، حتى وإن جاء ذلك بتزوير ورقة. كان يمكننا الخروج والزيارات والتسوق والعودة قبل الساعة العاشرة ليلًا، ولم يكن هناك أية مشكلة في الدار. بعد عام أو يزيد، جاء الخبر كالصاعقة ستغلق الدار بابها خلال شهر واحد لانقطاع الدعم المالي عنها، ويجب أن نتدبر خلال هذه الفترة أمورنا

ونغادر إلى مكان آخر. عندما نعتاد المكان يا سلمى يصبح جزءًا من أجسادنا، يصبح الوطن الذي تسكن فيه أرواحنا وتشعر فيه بالأمان، وفي ليله نغمض أعيننا مطمئنين إلى أحلام بلا كوابيس.

اتفقتُ أنا وصديقتي سميرة التي تعرفتُ عليها في الدار أن نسكن في شقة واحدة لتخفيف عبء المصاريف، ولنجد من يعولنا، ولكن ليس من السهل إيجاد جمعية موثوقة.. وحتى لا أطيل عليك، بعد أشهر قليلة تزوجتْ صديقتي شخصًا تركيًا، فبقيتُ وحيدة، ولم أعد أشعر بالأمان، وفقدتّ الثقة بمن حولي فقد تحولوا إلى مجرد عيون تأكلني، فقررتُ العودة إلى هذا المخيّم بمجرد مجيء إجازة العيد حيث يمكن الخروج بدون مشاكل. قالت سلمى: يبدو أنّ الأقدار ساقتكِ لنتعرّف عليكِ وعلى وليد، ثم طبعت قبلة على خدّه.

حلّ المساء بنسماته الباردة قليلًا، وقد استعدّ زياد وزوجته إلى زيارة حسن وعائلته، وبعد بحث قليل في شوارع الدانا الضيقة وصلا إلى العنوان المطلوب. كان لقاء حارًا بعد تلك الفترة الطويلة من الفراق.

تحدّث حسن بحسرة على ما آلت إليه حال المدينة بعد أن دخلتْها داعش:

- خرج جميع الأهالي بسبب قصف الطائرات للمدينة، واستشهد عدد من المدنيين وجُرح آخرون، كان الوضع مأساويًا فلا رحمة من الطرفين، وهُدّمت منازل كثيرة وكأنّ زلزالًا عالي الدرجة أصاب المدينة.

- وأين فصائل الحر من كلّ ما يجري؟

- هذه قضية أخرى سبقت وصول داعش، فقد كانت فصائل المنطقة تحاول التفاهم مع قادة داعش ولكنهم كانوا يخدعونهم، فطلبوا منهم البيعة ولكن الفصائل حاولت المماطلة لأنهم لا يريدون الانضمام إليهم. ثم ترك قلة من عناصر الحر فصائلهم مبايعين لداعش لأسباب مختلفة، منهم قناعة بمنهجهم، ومنهم من رأى أنهم الجهة الأقوى فرجّح الانضمام إليهم. وقد كانت الفصائل تحاول تحييد المدينة عن الحرب، وأن يوافق قادة داعش على عدم دخولها، ولكنهم رفضوا. كانوا يرفضون مع علمهم بأنهم غير قادرين على حماية الأهالي من قصف الطائرات. أي استهتار هذا بحياة الناس وهم الذين يدّعون بأنهم مسلمون؟ كل ما يستطيعونه هو التفجيرات التي يتقنونها، وهي التي يسمونها عملية استشهادية وانغماسية ومن هذه المصطلحات. لم يدخلوا مدينة أو قرية إلا خلت من سكانها، أي دولة هذه التي يريدون أن يقيموها؟ دولة بلا شعب؟ إني لا أجد أي صدفة في هذه اللعبة وهم يدخلون مناطق من لون واحد. المهم في ذلك أن الفصائل التي حافظت على كيانها اضطرت للابتعاد عن المدينة وأراضيها التي أصبحت ميدانًا للمعركة بين النظام وداعش، واتجهت إلى الجنوب الشرقي داخل البادية السورية.

- وياسر؟

- أما ياسر فكان قد ترك العمل مع الجيش الحر قبل مجيء داعش بسبب خلافات شخصية، وطريقة عملهم الفوضوي، وسوء توزيع مال الداعمين،

فارتدى ثيابه المدنية وجاء من المناطق التي تسيطر عليها داعش كما جئنا نحن، ويفكر في فتح بقالة هنا في الدانا.

- الحمد لله على سلامتكم.

- أخبرني كيف تعيشون في المخيم؟ وكيف تتدبرون أموركم؟

تحدّث زياد عن صعوبة أوضاع النازحين في حر الصيف وما يعانونه أثناء الأمطار الغزيرة والسيول في الشتاء، واقترح عليه ضرورة العمل معًا فيما يمكن أن يفيد النازحين للتخفيف من معاناتهم.

من خلال الإنترنت تواصلا مع جمعيات عاملة في الشمال السوري وفي المناطق الحدودية، وقدما سيرتهما الذاتية، ولم يشترطان تعويضات كبيرة مقابل عملهما، كان هدفهما الأول مساعدة النازحين، وتقديم ما يمكنهما لخدمة الإنسان الذي ذاق من الظلم ما لم يكن يتوقعه طيلة سنوات حياته. لم ينتظرا الموافقة على عملهما، فقد انخرطا في البحث عن القضايا الأشد إيلامًا، وتسجيل الحالات الإنسانية الملحّة وتصنيفها ليصار إلى تقديم الدعم اللازم قبل فوات الأوان. وضعا خطة للتنقل والبحث بين المخيمات الأخرى، وزيارة الأماكن التي يقطنها عدد قليل من الناس أيضًا كالمزارع، والأكواخ، والوقوف عن كثب على أوضاع الناس التي اضطرت لترك أرزاقها وبيوتها، وما يمكن أن تقدمه لهم الجمعيات وأهل الخير.

انطلقا في عملهما الإنساني والأمل يغمرهما في أن يقدّما شيئًا ولو بسيطًا في التخفيف من معاناة نازح أو نازحة. وهذا ما يمكن أن يكون مساهمة منهما في هذه الثورة التي قُدّر لها أن تقوم ضد الظلم، رغم ما تواجهه من مؤامرات وخذلان من أطراف داخلية وخارجية، ولم يكن من السهل تفسير هذه الحالة الفريدة التي وقع فيها السوريون، والتي تزداد تعقيدًا وإيلامًا، وجرحًا نازفًا يزداد عمقًا وتشوهًا.

في الخيمة ليلًا، ابتلعت سلمى حبوب دوائها، واستأذنت تريد النوم، أما زياد فقد أخرج دفتره ومسح غلافه الأسود من الغبار الذي علق به هامسًا: يبدو أنّ صفحاتك لن تكفي لما سأكتبه أيّها الدفتر، فالقضايا التي تجتاحنا أكبر بكثير من أن تستوعبها صفحاتك المحدودة. وبدأ يكتب: معلومات مخزية عن التعفيش الذي حصل بعد خروج داعش من المدينة، لم يكتفوا بنهب البيوت وحرق بعضها، فقد أتو على كل شيء. تحدث أحد الموظفين الذين نزحوا في الداخل قال:

«جاءنا أمر بالعودة إلى المدينة لمعاينة الأضرار التي لحقت بها، والبدء في تأهيلها وإصلاح ما تم تخريبه من قِبَل الإرهابيين. وصلْنا إليها صباحًا حيث كانت غيوم كثيفة داكنة تغطي سماءها جعلت ضوء النهار خافتًا كما لو أنّه أدبر لاستقبال المساء، ورياح باردة تهجم من كل الجهات وتعبث في كل الأشياء المرمية في الطرقات، بقايا أثاث محروق أو ممزق، وأشياء أخرى محطّمة وأشياء عافتها النفس لقذارتها أو رخص ثمنها، أسلاك كهربائية

مقطعة، أواني زجاجية مكسورة، صحون،.. أبواب المنازل والمحلات والنوافذ مسروقة، ولا وجود لأسلاك الكهرباء، ولا توصيلات الهاتف في الشوارع، حتى أن أسلاك التمديدات المنزلية سُحبت من الجدران.

المدينة يسكنها الأشباح، مخيفة كأفلام الرعب، كنا خمسة أشخاص نتجوّل معًا، لا يبتعد أحدنا عن الآخر، نمشي بخطًا متثاقلة متهيبين، أبنية من عدة طوابق تحولت إلى كتلة من التراب والحجارة، وكأنّ زلزالًا شديدًا عصف بالمدينة. اقشعرّ بدني وأنا أتخيّل أنّ وحشًا ما سيخرج من بين الأنقاض، وسيقبض علينا واحدًا واحدًا، ثم ينزلنا إلى مملكته السفلية تحت الأرض. أو أنّ أشباحًا ستخرج من مكان ما بوجوه مشوهة تقطر منها الدماء وستقتلنا وهي تقهقه بصوت عال، أو تقوم باختطافنا وحرقنا جملة واحدة.

صفير الهواء المنبعث من بعض الأماكن يقطع أنفاسنا، نتوقّف قليلًا ثم نعاود السير، قلت لزملائي دعونا نشعر بما يجري حولنا كمن يقوم بأداء دور في فيلم، دعونا ننسى الخوف لنتمكن من أداء مهمتنا - مع أني كنت أخوفهم - فالذي رأيته كان فظيعًا إلى درجة أن الكوابيس لازمت نومي فلم تعد تفارقني».

لست وحدك من علِمَ وشاهد، لقد نُقل لنا شهادات كثيرة مما صار نهجاً تتبعه الشبيحة والمرتزقة لإهانة شرف الرجل السوري، ويضغطون به على الثوار لتسليم أنفسهم بعد أن يرسلوا لهم ما صوروه مع نساء تخصّهم يتضمن التعذيب والاغتصاب، وهي قصص غريبة عن مجتمعنا المحافظ.

وعلى ما يبدو أنّ العالم الذي يدّعي الديمقراطية وحقوق الإنسان أغلق عينيه وأصمّ أذنيه وسكت عما يعانيه السوريون.

تقول إحدى الناجيات من إحدى المجازر الكثيرة التي حدثت: «لقد دخلوا بيوتنا بعد القصف. كانت أجسامهم ضخمة، ومسلحين ببوارید ذات حربات، كانوا يتلذذون بذبح الأطفال. يقتلون العائلة بأكملها فلا ينجو إلا من عمى الله بصيرتهم عنه بإصابة خفيفة. عندما دخلوا إلى منزلنا قتلوا زوجي، ومزقوا ثياب إحدى بناتي، فشققت ثوبي لهول ما رأيت وأنا أنتحب وأرجوهم ألا يمسّون ابنتي بسوء، ولكنه فعل ما أراد ثم ذبحها كالشاة. اعتقلوني في سجن مع عدة نساء، ولم يشفع لي عمري الذي تجاوز الخامسة والخمسين، فكانوا يغتصبوني مع النساء الأخريات بشكل يومي تقريبًا، هذا عدا التعذيب الجسدي».

وقالت أخرى: «تعلمتُ عمل الإسعافات الأولية في المراكز الميدانية وبعد أن اكتُشِف أمري تمّ اعتقالي. جرى التحقيق معي لعدة ساعات، يريدوني أن أعترف بأني أوصل أسلحة للثوار. كنت أسمع أصوات المعذبين. تذكرت أولادي وزوجي وأهلي وبكيت.. أدخلني الضابط إلى غرفة تحوي سريرين وقال انتظري هنا. كنت مرهقة ومرعوبة. بعد ذلك دخل ثلاثة وحوش، أجسامهم ضخمة، أمسكني اثنان منهم من كتفيّ وثبتوني للثالث وأنا أصرخ ولا أحد يكترث لصراخي. كانت تتحدث وتنتحب. هدأت قليلًا وأكملت: كانت معنا امرأة حامل في شهرها الثامن، اغتصبوها لدرجة أنها

أسقطت جنينها، وأخرى لم يرحموها وهم يتناوبون عليها حتى أغمي عليها من النزف..

عندما خرجتُ من السجن رفضني أهلي وأغلقوا الباب بوجهي وطلّقني زوجي وترك الأولاد لي، فما كان مني إلا أن أخذت أولادي وجئت إلى الشمال، لكني لن أقف هنا وسأغادر إلى تركيا. وقد علمت أن بعض النساء اللواتي خرجْنَ من السجن قُتِلن من قِبَل أهلهن، ومنهنّ من انتحرن في السجن لعلمهن أنّ الموت ينتظرهن خارجه في حال خرجْنَ أحياء.»

أخذ زياد نفسًا عميقًا متابعًا الكتابة: هذا غيض من فيض مما قيل لنا من أخبار سجون النساء وكيفية التعامل معهن. لقد انتُزِعَت الرحمة من قلوب الجميع. إنها لعنة الحرب التي كنْتُ قد سمعتُ فظاعات وجرائم مشابهة لها في حرب البوسنة والهرسك. ولكن ما ذنب النساء في مثل هذه الظروف حتى يتصرف الأهالي معهن بهذه القسوة؟ أغلق دفتره وأغمض عينيه وسرح فكره، فتذكّر منزله في المدينة، فردد لسانه مطلع قصيدة الشاعر نادر شاليش الذي هجر بلده مرغمًا كما هو حال الملايين:

أرسلتُ روحي إلى داري تطوف بها
لمّا خُطانا إليها ما لها سُبُلُ
أن تسأل الدار إن كانت تذَكَّرُنا
أم أنّها نسيت إذ أهلها رحلوا
أن تسأل السقف هل ما زال مُنتصباً

فوق الجدار شموخاً رغم ما فعلوا

أم أنّها ركعت للأرض ساجدةً

تشكو إلى الله في حزنٍ وتبتهلُ

صمت قليلاً ثم همس محبطاً: اللعنة على الكراسي وحبّ السلطة، ألا يدرك أولئك أنهم سيموتون ولن يأخذوا معهم إلا قطعة من قماش الخام الرخيص؟

****

-5-

أصداء قصف الطائرات الروسية لمناطق في إدلب يشغل الناشطين. هذه المرة طال مركزًا طبيًا. صور وتقارير عبر الإنترنت تُعرَض في قنوات وسائل التواصل الاجتماعي.. فأخبار الدماء النازفة بشكل يومي أصبحت من المسلسلات المكررة والمملة للقنوات الفضائية، ويمكن أن تنشرها قناة إخبارية على استحياء. قد يصل صوت الطائرة المغيرة إلى سكان بعض المناطق، وهذا يعني أنهم حاليًا لا يمثّلون هدفًا مباشرًا للطائرة، ومع هذا تفرغ القلوب إلّا من الدعاء إلى الله، ويهرعون إلى أماكن في المنزل يظنون أنها أكثر حماية لهم من زوايا أخرى كالغرف الإسمنتية المسلحة بالحديد، أو أسفل الدرج الإسمنتي إن توفّر. تحضن الأم أطفالها كالدجاجة التي تنحاز إليها فراخها المهدّدة، والآخرون يسلّمون أمرهم إلى الله متضرعين أينما تواجدوا.

في المكان الهدف يحدث انفجار شديد، ويعلو صوت ضخم، ترتج له كل المناطق المحيطة، وغبار كثيف يُرى من مسافات بعيدة. يتراكض الناس من كل الاتجاهات إلى ذات المكان الذي ينقشع ترابه المتطاير عن مسرح الجريمة. صراخ، عويل، مناشدة.. يسارع الواصلون مباشرة إلى البحث عن الضحايا والمصابين الذين تغطيهم كومة كبيرة من الحجارة واللبن الإسمنتي للبناء المستهدف. سيكونون محظوظين إن لم يتم استهداف المكان ثانية،

نعم، هذه هي الأمنية المرجوة في مثل هذه المواقف المؤلمة، كفّ القاتل عن القتل في هذه اللحظات الحرجة ليتسنّى لملمة بعض الجراح، وتقديم إسعافات أولية في زاوية من زوايا المكان لمن تُرجى له النجاة.

أجساد معفّرة بالتراب والدماء، ومازالت أرواحها معلقة بين الحياة والموت، أو بقايا إنسان، ضاعت أجزاؤه بين الحصى والتراب، وقد يُعرف من قطعة ثوب كانت تستره، أو طفل جريح قدّر الله له أن يولد وحيداً بين الركام، يخرج تائهًا ومصدومًا إلى عالم لا يشبه بأي حال عالم البشر، بعد أن شوّهه كِبْر إبليس ومن تبعه من عبدة الظلام وسدنة طواغيت العصر.

كان زياد وحسن يتجولان في منطقة قريبة بين خيم متهالكة، نصبها أصحابها بجانب أشجار أفل ربيعها بعد غياب العناية بها، بل لحقها الجور هي الأخرى بعد تراجع دورها إلى تعويض بعض خشب التدفئة في أيام الشتاء القارس. الأجساد الهزيلة والوجوه المتعبة، والثياب البالية وأثاث الخيمة، كلها تحكي نفس الحكاية، حكاية الظلم والتسلط والجشع. يستمعون إلى البوح الكسير ويقرؤون فقدان الأمل، ويسجلون الاسم والعنوان والحاجات الملحة، ويوصلونها إلى أهل الخير علّهم يتمكنون من التخفيف عنهم.

أثناء غياب زياد يكاد لا ينفع مع سلمى دواؤها، فهي قلقة ومرتبكة، وأفكار تذهب وأخرى تجيء، فالساعات التي يغيبها أصبحت طويلة جدًا مهما كان عددها. هكذا أصبحت تعيش في زمن قياس وقته يختلف عن

قياس الوقت المعروف، ولم تعد قادرة على الصبر والهدوء قبل أن يردّ عليها برسالة واتساب، ناسية أنه لا يتوفر الإنترنت في كل أماكن المنطقة. تفقد الإحساس بالجوع ولكنّها تعمد إلى شرب كأس من اليانسون الساخن في أي وقت يطال ذهنها مثل هذه الأفكار والتصورات. تتحرك من مكان لآخر ذهابًا وإيابًا دون ثبات حتى إذا تأخّر الردّ انفجرت عيناها بالدموع قهراً، فإذا وصل الردّ لامت نفسها، رافضة هذه الحالة التي تمكنت منها ومتسائلة: لماذا أنا هكذا؟ أريد أن أكون امرأة قوية، ثم يعلو صوت نشيجها.

عندما اكتشفت ليلى مرض سلمى قالت في نفسها: «هل يمكن أن يكون بسبب حبها الشديد لزياد؟ فإن كان كذلك فأنا لم أر في حياتي امرأة تحب زوجها إلى هذه الدرجة! لا، لا، هذا مجرد مرض، صحيح أنّ الحبّ يتفاوت بين الأزواج، وربّما كان أشدّه بين من تزوجا عن معرفة، وعلاقة حب تجمعهما، ولكنّه عادة ما يضعف مع أول إنجاب - كما هو معروف- فلا يبقى بنفس الزخم، ولكن حالة سلمى غريبة وهي بالتأكيد مرض ناتج عن الخوف ليس إلا. وماذا لو علمت أني أحببت زيادًا فماذا يمكن أن تفعل بي؟ هل تعدّني خائنة لصحبتها وتطردني؟ ربما تكون على حق لو فعلت.. ولكن ما ذنبي أنا فقد أحسست بانجذاب إليه قبل أن أتعرّف إليها. منذ رأيته دخل قلبي دون استئذان. أما هو.. استرق النظر إليّ أكثر من

مرّة.. كنت فرحة بنظراته تلك، لأنّها دليل على إعجابه بي، وهذا يعني أني ما زلت ألفتُ النظر، وإلّا لماذا تكرّرت نظراته إليّ خلسة عن زوجته؟»

أمسكتْ مرآة وتابعت متلمسة وجهها وتعاريج جسدها: «ما زلت ابنة البارحة، ولم أهمل نفسي إلا بسبب الحرب ومن أجل ابني وليد، أما زوجي - فليسامحه الله - لم يكن ينظر إليّ إلّا عندما يحتاجني كما تحتاج الحيوانات.. لا سلام ولا كلام وإلّا تضيع الرجولة.. بل تتهذّب الذكورة لو كان يفهم.وما ذنب وليد الذي بدأ يعي ما حوله ويميّز بين الرجل الأب والمرأة الأم؟ عندما بدأ النطق بدأ بكلمة بابا، وقد فاجأني مرة بسؤاله أين بابا؟ كذبْتُ وقلت له أنّه يقبع بعيدًا في الشغل وسيأتي عندما ينتهي عمله، ولكن تكرّر سؤاله وسيكتشف لاحقًا أنّي كنت أكذب عليه. لا أدري كيف سيكون الحال بعد عام أو أكثر فهو بحاجة لأبيه بقدر حاجته لي. تبًا للحروب التي لا تأتي إلا بالمصائب والكوارث». سكتت قليلاً ثم استدركت: «وهل حصلت الحرب إلا نتيجة الثورة، تبًا للثورات أيضًا، لقد فتحتْ علينا أبواب جهنم من فئة لا تخاف الله. كنّا نعيش حياتنا مثل كلّ دول العالم.. لا، الحقيقة ليس مثل كلّ دول العالم، بل مثل الدول التي تشبهنا..».

تراجعت ضاحكة من أفكارها وتابعت: «قال تشبهنا قال! وهل توجد دولة تشبهنا؟ لولا الظلم الذي خنق الناس لما ثاروا، هذه هي الحقيقة المُرّة».

اقتربت من وليد الذي كان يأكل قطعة حلوى ومسحت فمه مهمهمة: «إذا كنت أتمنّى أن يعود أبوك فإنّي أتمنى عودته من أجلك يا حبيبي، أما

بالنسبة لي فلا، إلّا إذا تغيّرت طباعه، وأرجو أن تتغيّر». عدّلت من هندام وليد وقالت له: هيّا نخرج لنمشي قليلًا ونتدفّأ بحرارة شمس هذا اليوم، هيّا..

- ليلى! إلى أين؟

- قلت أتمشّى قليلًا أنا ووليد، هل أنت خارجة أيضًا يا سلمى؟

- قلت أمشي معكما، هل تسمحان؟

قالت ليلى مبتسمة: آه، بالتأكيد، يسعدنا ذلك، كيف الأخبار؟ هل أنت وحيدة؟

- وماذا أفعل! نعم وحيدة، وصرت أخرج عندما يتأخّر زياد.

- لا تقلقي، فالغائب وحجته معه كما يقولون.

- صحيح، ولكن ما كان ينقص المنطقة قصف الطائرات إلا خلافات الفصائل والاغتيالات!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وما الذي نستطيع أن نفعله؟

- لا شيء مع الأسف. تعالي نجلس هناك على تلك الصخرة إلى جانب الطريق حتى لا نبتعد كثيرًا.

كان زياد وحسن يستخدمان سيارة الجمعية في جولاتهما إلى المناطق المحيطة، فيتعرفان على أحوال النازحين الأشدّ حاجة لتقوم الجمعية بدورها في وقت لاحق بالمساعدة، وتقديم العون حسب القدرات المتوفرة.

- اسمي رامي عبدالله، راقبتك لعدة أيام أنت وزميلك، فقد كنت غير واثق من عملكما، إلا أنّي تأكدت من مساعدتكما للناس. فاعذرني يا أستاذ..

- حسن، أنا حسن، وماذا كنت تظن؟

- بصراحة يا أستاذ، خفت أن تكونوا عملاء لجهة ما، فقد انعدمتْ الثقة بين الناس مع الأسف..

- اطمئن من هذه الناحية، ولكن كيف لنا أن نطمئنّ نحن من ناحيتك؟

- عندما تسمع قصتي ستعرف، هذا إذا كان لديك وقت لسماع شخص مثلي.

- أنا في خدمتك يا رامي، واسمح لي أن أسجّل معلوماتك في دفتري كي لا أنسى.

- بالتأكيد. أنا خرجت من السجن منذ فترة قريبة..

- مسجون عند النظام؟

- لا، عند الجبهة.. أظنها قرابة الثلاث سنوات، نُقِلت مع آخرين إلى سجون مختلفة بعد أن باتت منطقتنا تحت سيطرة النظام، ونزح الناس كما تعلم، ولكني لا أعلم عن أهلي شيئًا..

صمت قليلًا ثم ابتلع ريقه وأكمل: وزوجتي وابني أيضًا..

تأثّر حسن بقصة رامي، ووعده بالبحث والسؤال عن عائلته في الأماكن التي يذهب إليها برفقة زياد. كان زياد وحسن يعملان معًا على مقابلة

الناس، وأحيانًا يتقاسمان الدخول إلى الخيم والأماكن ليلتقيا في نهاية عملهما عند السيارة التي لا تكون بعيدة في العادة.

في طريق العودة يتشاركان الأحاديث عن آلام وأوجاع الناس وخاصة الغريب منها. قال حسن بحرقة: ألا يكفي هذا الشعب المسكين ما حلّ به من تهجير وبرد وجوع، وتفرق العائلات وضياعها، وكأنّ ما كان ينقصه إلا أن يعاني من قتال الفصائل مع بعضها أيضًا، فيُقتل أو يُجرح شباب بعمر الورد بدون أي فائدة، ويُسجن البعض عدة سنوات وكأنّه في سجون النظام، ليس هذا فحسب، فقد أصبح السلاح منتشرًا بين الصغار كما هو لدى الكبار، وما أسهل من إشهاره عند أية حماقات صبيانية.

قال زياد: الأسوأ من ذلك تصوير بعضهم لجريمته وتباهيه بها،

وخاصة ما يسمونه غسل العار، بل هم العار بذاته لو كانوا يعلمون. قلّب حسن بضع صفحات في دفتره وقال: لديّ مشكلة هنا لشاب خرج من أحد السجون في الشمال بعد ثلاث سنوات وهو يبحث الآن عن أهله وزوجته، اسمه رامي عبدالله، وقد وعدته بالبحث عنهم أثناء تحركاتنا في المنطقة.

زياد: هل زوّدك بمعلومات عن أهله أو زوجته؟

حسن: اسم زوجته ليلى ابراهيم، وله ولد واحد.

زياد: آه جيد..

صمت قليلًا ثم استدرك فقال: سأسأل عنها في المخيم.

كان يريد أن يسألها ويسمع رأيها..

نزل زياد من السيّارة في مفرق الطريق الذي يؤدّي إلى خيمته، وقد استرجع ذهنه اللحظات الأولى للقائه بليلى، كان متعاطفًا معها ومع حكايتها التي تمثّل حكايا الكثير من النساء، وكان يمكن التفكير بها بشكل آخر لولا بعض الإشكالات التي تحيط بوضعه هو. لقد نظر إليها نظرة إعجاب، ولكنه سرعان ما كبح جماح عينيه وقلبه متذكرًا أنّها ما تزال على ذمّة رجل، الرجل الذي له من الصفات التي تمقتها ليلى، ومع هذا مازال الرابط بينهما مقنعًا ومبرّرًا ألا وهو وليد، هذا الطفل الذي لا يعرف والده بعد. الطفولة ليست مظلومة في الحروب وحسب، بل في ظلّ عدم تفاهم الوالدين أيضًا. أكّد زياد لنفسه أنّ ما عمله بإرادته كان صوابًا، وهو خلاف رغباته وأهوائه. وعليه اليوم أن يكون متوازنًا في التصرّف بعيدًا عن تلك الأهواء من أجل لمّ شمل أسرة فرقتها الحرب.

في الخيمة قال زياد: ليلى، أردّت أن أسألك فيما إذا كان زوجك طيلة هذه المدة في السجن.. وخرج.. كيف سيعرف أين يسكن أهله أو أين تسكنين أنت ووليد؟ ما رأيك؟

أذهل ليلى سؤال زياد، وأخرج وعيها عن واقعها للحظات، ولكنّها تنبهت لصوت وليد وهو يطلب منها كأس ماء. قالت وهي تسقي وليد: الحقيقة لا أعرف.. ثم تابعت متهكّمة: ولكن ليخرج أولًا!

- لقد سمعت أنّه أُفرِج عن عدة أشخاص كانوا مسجونين في الشمال، ما رأيك أن أسأل عنه؟ هل يمكن أن أعرف اسمه؟

- اسمه رامي عبدالله.

- رامي عبدالله.. فقد يكون أحدهم إن شاء الله.

قال ذلك وهو يتابع إيماءات وجه ليلى محاولًا فهم ما يدور بذهنها. قالت سلمى وقد انبسطت أسارير وجهها: ستكون ليلى سعيدة بالتأكيد إذا عاد رامي، على الأقل من أجل وليد، ولن يبقى أحد بعد

هذه السنوات كما كان على ما أظن. لا بدّ أن يكون رامي قد أصبح شخصًا آخر. أرجو أن يكون من بين هؤلاء الأشخاص الذين خرجوا. ابتسم زياد في سرّه ولم يقل شيئًا.

قالت ليلى وقد مال قلبها إلى قبول فكرة خروجه وعودته إليها: أرجو ذلك، ثم استأذنت بالذهاب إلى خيمتها وهي تتخيل رامي بلحية غير متناسقة، وشعر طويل أشعث، وثياب مهترئة، وحاولت أن تكتشف ملامح وجهه فرأت أنه ازداد سمرة، وقد برزت عظام وجنتيه، وتراجعت عيناه قليلًا داخل محجريهما، وكأنّه عاد لينتظرها خلف باب الخيمة. دلفت وهي تنظر في الأرجاء، أخذت نفسًا عميقًا وجلست تشدّ ابنها إلى حضنها وهي تقبّله، قاصدة التخلص من توترها الذي داهمها عندما بدأت تفكّر بعودة رامي، وحالمة بمجهول الأيام القادمة.

حانت ساعة اللّقاء، ولابدّ من ترتيب المكان والزمان.. كان زياد يفكّر وهو يقلّب صفحات دفتره ذي الغلاف الأسود، هذا الدفتر الذي لا يُخفي عنه أي

شيء يدور في ذهنه، إنه صديقه الأقرب إلى نفسه والذي يكتم جميع أسراره..

كم عدد الذين لم يلتقوا بذويهم بعد، وقد لا يلتقوا أبدًا؟ كم من امرأة أفقدتها دموعها جزءًا من نظرها وهي تتأملّ عودة أحد أبنائها وربما كلّهم؟ كم من طفل ضاعت طفولته بين المطرقة والسندان؟ كم.. وكم من الأسئلة التي نعجز عن إيجاد جواب لها في ظل هذه الحياة العجيبة.

أنت محظوظ يا رامي، لأنك ستلتقي بليلى ووليد، ربّما لم تكن ليلى تنتظرك بعد مضي ثلاث سنوات، ولكنك ستجدها وتجد طفلك الذي لا يعرفك بعد. ستكونون عائلة جميلة بالطبع، إذ أنه بعد هذه السنوات من الفراق الصعب وعيش القهر في السجن، لن تكونوا إلا كذلك، هذا ما أتمناه لكم.

هذه حادثة جرت في واقعنا المرّ الذي طالما يحمل مفاجآت قاتلة، ولك يا رامي أن تتخيل كمية القهر القاتل التي يمكن أن تقضي على حياة الناس.. ماهر أحد الشباب الذين يئس أهله من خروجه من السجن، إلى أن جاء خبر يفيد بأنّه توفّي في السجن مع مجموعة أخرى من المعتقلين، وقد تمّ دفنه من قبل النظام كما هي العادة، ليصبح مجرد رقم يضاف إلى مجموعة الشهداء في المقابر الجماعية التي لا يعرف موقعها إلا القتلة. أقيم العزاء الذي يليق بالشهيد الشاب، وطُوي دفتره من الدنيا ليُنظَر في وضع الأحياء الذين هم أبقى من الأموات كما ندّعي نحن الأحياء، وبعد انقضاء عدّة الوفاة

والتحامل على الألم الذي لا يكاد ينتهي، تُزَفّ أرملته لأخيه حتى يتمكّن من القيام بواجب تربية الأولاد اليتامى، ولكن من يعش كثيرًا يرى كثيرًا، فقد عاد الشهيد ماهر فجأة ودون سابق معلومات، أي أنّ الشهيد الحقيقي هو ماهر آخر فالأسماء تتشابه.

إنّها لفرحة عظيمة ولكنّها قاتلة في هذه القضية الشائكة؟ وكيف سيتصرّف ماهر؟ أعتقد أنّه غير قادر على أن يستعيد حياته الطبيعية في نفس المكان.. سيهرب ليعيش في سجن آخر محاولًا نسيان أنّه خرج يومًا، وأنّ فرحته بذلك اليوم كانت مجرد حلم، ولكنّه سيتذكر جلاده الذي كان سببًا في سجنه كلّ تلك السنوات، حيث قتل اسمه وقتل مستقبله. ألم أقل لك أنك محظوظ يا رامي؟

في اليوم التالي كتب حسن لرامي رسالة واتساب كما طلب منه زياد: ننتظرك يا رامي في مدينة الدانا في العنوان.. ثم قال في نفسه: لم يخبرني زياد إن كان وجد أحدًا من عائلته، وأنا نسيت سؤاله.

مضى يومان ولم يأت الرد، وبدا أنّ الرسالة لم تُقرأ بعد.

- أين أنت يا رامي؟ إنها الوسيلة الوحيدة للتواصل في غياب تغطية الاتصالات، ماذا نفعل يا زياد؟

- يمكن أن نعود إلى منطقته غدًا ونبحث عنه، فقد تكون المشكلة في غياب الكهرباء وعدم شحن الهاتف.

- تمامًا، صحيح، لم تخبرني؛ هل وجدت أحدًا من عائلته؟

- زوجته..

- ممتاز، الله يعين الناس

في المساء تصل رسالة رامي إلى حسن:

..سقط هاتفي النقال من جيبي وتعطل، واضطررت للذهاب إلى مدينة الدانا لإصلاحه. الآن تمكنت من قراءة رسالتك يا أستاذ حسن وأنا في البيت الفندقي عند أبي ملحم لقضاء ليلتي.

لم ينتظر حسن ليردّ على الرسالة واتصل بزياد فورًا

- إنّ رامي حاليًا في البيت الفندقي عند أبي ملحم، كان هاتفه معطلًا.

- لا أعتقد أني سأتمكن من الصبر إلى الغد. أريدك أن تذهب إليه يا حسن.. أرجو ألا تخبره بشيء، وسيكون اللقاء في البيت الفندقي.

- اتفقنا..

.....

- سلمى، لا وقت لدينا هيّا أخبري ليلى أنها ستخرج معنا في سهرة..

- أي سهرة هذه ومع ليلى؟ قالت متعجبة.

- آه يا عزيزتي لا تغاري ولا تتسرّعي، وستعرفين أنّ وجودها ضروي..

- لن أذهب قبل أن تقل لي..

قال محبطًا: لا فائدة.. يا عزيزتي وجدنا زوجها وهو الآن في البيت الفندقي.. أرجو ألا تخبريها.

- آه.. الحمد لله، سأذهب حالًا.

لم تتمكن سلمى من إخفاء فرحتها التي ظهرت جليّة على وجههاوفي نبرة صوتها.

- ليلى.. سنسهر الليلة سهرة مميزة، هيا تجهزيأنت ووليد.

- أين سنسهر؟ وليد ينام باكرًا.

- هذه الليلة سيسهر مع أبيه، هيا تحركي.

- رامي؟ هل خرج رامي من السجن؟ لحظة، لحظة.. دعيني أفهم. قالت وهي تمسك رأسها وكأنها توقفه عن الدوران.

- نعم هذا ما حصل، عندما سألك زياد منذ يومين عن اسمه يبدو أنّه كان يعلم شيئًا.

- آه منك يا زياد.. تعلم ولا تتكلم!

في البيت الفندقي عند أبي ملحم كان اللقاء فريدًا لم يشهده أحد، لقد ارتأى الجميع أنّ هذه اللحظات يجب أن تكون خاصة بأصحابها. استأذن حسن بالخروج لدقائق بعد إشارة من زياد على الهاتف النقال ثم دخلت ليلى وابنها فشهق رامي ووقف لا يصدّق عينيه، وبلا وعي احتضن زوجته وابنه، ودموع مختلطة من الفرح والحزن كانت تنهمر من عينيهما.

قالت ليلى: هذا أبوك يا وليد لقد عاد بعد أن أنهى عمله. ثم علا نشيجها، شد رامي ابنه إلى حضنه أكثر وهو يمسح دموعه وقال: لقد كبرت يا وليد، ما شاء الله، لأن أبتعد عنك بعد اليوم يا حبيبي.

دخلت سلمى وتبعها زياد وحسن وقدموا لهم التهنئة بلم شملهم، ثم اتفقوا على السهرة وتناول العشاء.

****

-6-

في مساء يوم كانوني، تطرق حبات المطر الناعمة أسقف الخيم برتابة، نزولها المتهادي هو الحنان الذي يرتجيه قاطنوها وقد فقدوا الأمل من أن يذكرهم المنافقون النافذون في دول العالم ولو لمرة واحدة، مثلما يكثرون من الحديث عن الرفق بالحيوان وحرية النساء. أن تموت بردًا في خيمتك خير لك من أن تموت بسيل جارف يمزقك ويرمي بأشلائك على أطراف الأرض. حتى طريقة الموت صارت من الأماني في زمن استبدال الشعب أو غربلته ونخله ليكون شعبًا متجانسًا كالمعادلات الرياضية المتجانسة. بعض الكلام رصاص لا ينسى- وإن فني الجسد- وسيبقى خالدًا ينخز الروح وينكأ الجراح على مدى تاريخ مشين من الألم.

على وقع الأوجاع المترامية الأطراف، وتحرك أصابع زياد بملل وتوتر على شاشة تلفونه النقال انبثقت رسالة بريد إلكتروني، ازدادت دقات قلبه، كان متمددًا فاعتدل. لاحظت سلمى حركته المضطربة، وكأنه تلقى خبرًا سيئًا، لكنّها ترددت في سؤاله، إذ أنّه كثيرًا ما كان ينهاها عن التفكير بسوداوية.

«تناولُ قليلٍ من الماء يفي بالغرض ويعيد لي توازني». قال زياد محدثًا نفسه. رشف بقية كأس كان بجانبه وقد رفع رأسه محاولًا الكشف عن مرمى عيني سلمى، فقد تخونه إيماءات وجهه أثناء القراءة ويتسبب في تغير مزاجها.. قرّر أنّ الوقت غير مناسب فاضطرّ لإغلاق الهاتف.

- مللنا من الأخبار، مللنا من الروتين، لا شيء جديد..

- وما الجديد الذي تنتظره يا عزيزي فكلٌّ يغني على ليلاه.. يبدو أنّ قضيتنا لن تحلّ بعشر سنوات أخرى، فهل نبقى طول عمرنا تحت خيمة..

- هل تفكرين بشيء ما؟

- أفكّر بالعوائل التي هاجرت.

- هل ترين أن نهاجر؟

- ولم لا؟ فقد أصبح همّنا ألّا نسمع صوت الطيران والقذائف. نموت كل يوم مئة مرة.

- مع الأسف صحيح. سأفكّر بالأمر.

- هل من أخبار عن رامي وليلى؟

- أعتقد أنهم مازالوا فيسرمدا، فقد يكونون عند أهله.

- الله يوفقهم..

- آمين.

- تعال وجرّب النوم على أنغام المطر الهادي تعال.

ابتسم وقال: قد يكون أفضل عمل نعمله هذه الأيام هو النوم.

لم تغب رسالة البريد الإلكتروني عن تفكيره، فقد مضى عام أو أكثر دون أن يعرف شيئًا عن نوران. في صباح اليوم التالي وأثناء خروجه للقاء حسن كان الوقت مناسبًا لقراءة الرسالة:

أيها الساكن بين أضلعي.. تُراك نسيت أم ما زلت تذكر؟

لحظاتنا الأولى في المكتبات، وعلى الطريق وفي المعابر
حديثنا وعيوننا وفنجان قهوتنا، وهمسات الدفاتر
أحلام مقامر
مدينة الحبّ مدينتنا صارت قبرًا ومقابر
ففي كل يوم يبيعها القاصر ويشتريها تاجر
إلى هدأة الليل البهيج، إلى ضوء القمر، إلى السمر
إلى السلام، إلى الوئام، روحي تهفو وتسافر
إليك أنت وحدك أشتاق وروحي تطير وتغادر

التوقيع: نوران

سحب الصفحة إلى الأعلى، لكن لا شيء آخر، أسعدته رسالتها بقدر إحباطه منها فهي لم تذكر له أية معلومة أخرى. سيردّ بعد أن يصل إلى مكتب الجمعية، فاليوم لا ينتظرهم الكثير من العمل، سيدققون سجلّات الأسبوع الفائت، ويتبادلون الأحاديث، ويشربون الشاي، وسيكون لديه الوقت الكافي للرد.

.....

أيتها الأديبة الرقيقة: كيف لقلمي أن يجاري قلمك الراقي! وأنّى لقلبي أن ينسى؟

في قلبي عرشك يتربع، في دربي إليك أتطلع
أجري خطواتك أتتبع، أنفاسي وراءك تتقطع

كلماتك لي أبدًا أبدع، قبّعتي من أجلك أرفع

فأنا أعترف أنك تمكنتِ من هزيمتي عندما أعلنتِ التمرّد حتى على نفسك، لم أكن أتوقّع ذلك بسبب قوة القناعات التي يدين بها من حولك، ولكن كانت لك الغلبة عندما رفضتِ الجميع مقابل رفضهم لي. أمّا أنا فكنتُ أضعف من أن أقرّر.

كانت اسطوانتهم المشروخة: «من لا يأخذ من ملته يموت في علّته»، وها نحن في الحالتين سنموت في علّتنا، لأنّنا لم نأخذ من غير ملتنا. أليس كذلك؟

أين أنت يا نور؟ هل ستجدين في مكانك الهدوء والسكينة؟ هل تعتقدين أن في البعد سلوى لكلينا؟ إنّي أتعذب من أجلك مرتين، مرة لأنك بعيدة عني، وأخرى من أجل سلمى التي ليس لها أيّ ذنب.

في الأشهر الأولى لزواجنا أخطأتُ عدّة مرات بمناداتها، فسألتني ومن هي نوران؟ فتعجبت لسؤالها وسألتها أي نوران؟ قالت أنت ناديتني نوران، لا أدري كيف تخلصتُ من سؤالها هذا سوى أني أذكر ما قلته لها بضحكة مصطنعة: أناديك يا نوران، يا ورد الأقحوان، يعني صفات يا حبيبتي، ثم اكتشفتْ قصتنا عندما كنت أهذي باسمك في أحد أحلامي، وفي الصباح وقبل أن أنهض من فراشي، وضعت يديها على خصريها وقالت بسخرية: تناديني نوران يا ورد الأقحوان، تضحك علي؟ فاضطررت أن أشرح لها كل ما كان بيننا. حزنت في البداية ولكنّها عذرتني لاحقًا -هكذا بدا لي- فأنا لا

أستطيع أن أقدّر شعور امرأة يناديها زوجها باسم امرأة أخرى، غير أن المرأة في ملّتنا يمكنها أن تتعايش مع ضرّتها وإن كان ذلك انتزاعًا لجزء من ملكيتها.

أخيرًا أين أنت يا نوران؟

التوقيع: زياد

ضغط زرّ (إرسال)، وتابعت عيناه الشاشة حتى ظهرت عبارة (تمّ إرسال رسالتك)، عندها تأكد أنّ رسالته ستصل وجهتها. أغلق الهاتف، وعبّ كأس شايه البارد دفعة واحدة، وانتبه إلى ما حوله.

- المعذرة يا حسن، فقد كنت..

- ولا يهمك، لاحظت أنّك مشغول في عالم آخر، فلم أرغب بإزعاجك. على كل حال لم يبق أي شيء مهم.

- الله يعطيك العافية.. إي، ماذا يوجد في الأفق؟

- وماذا يوجد غير الموت للأسف، يبدو أنّه بعد كل لقاء بين الروس والأتراك تحدث لنا مصيبة. نحن الحلقة الأضعف كما تعلم.

- للأسف هذه هي الحقيقة المُرّة، يضغطون على الأتراك بقتلنا.

- يا أخي والله أكثر ما يزعج هو استهداف المخيمات، هذا أمر لا يمكن تفسيره.

- لا يخافون الله، الله ينتقم منهم.

- ذكروا أنهم وجدوا طفلًا صغيرًا بعد استهداف منطقة أحد المخيمات، يبدو أنّ أهله قد استشهدوا جميعًا ولم يتعرّف عليه أحد، حيث أنّ الناس هناك مهجّرين من مناطق مختلفة.

- الله المستعان.

- غدًا سنذهب إلى هناك وسنرى ماذا يمكن أن نفعل.

- إن شاء الله. كنت سأستشيرك في موضوع..

- أيّ موضوع هذا وبطوننا فارغة، هيا نذهب إلى البيت.

.....

- هات ما عندك يا زياد، لم يبق لي عذر بعد الشبع.

- في الحقيقة.. سلمى تريدنا أن نخرج من هنا، فحالتها النفسية ليست على ما يرام، وأخشى أن تزداد سوءًا مع مرور الأيام.

- هل السكن في شقة يحلّ المشكلة؟

- المشكلة لا تتعلّق بالخيمة ولا بالمخيم، وإنّما بالنهاية المجهولة لما نحن فيه، فقد مضت أربع سنوات أو خمسة والوضع من سيء إلى أسوأ، هل ترى بصيص أمل في نهاية النفق الذي حُشرنا فيه؟ للأسف أنا فقدتّ الأمل ولا أجد حلًا إلا بالهجرة.. ستقول لي أنّ هذا ما يريدونه وهو تفريغ الدولة من سكانها وأنا أقول: نعم ربما صحيح، ولكن يمكننا العودة إن شاء الله عندما تشرق شمس سوريا وخلاصها من تدخل الدول الكبرى والصغرى.

- وماذا تنوي؟

- أعترف بعجزي عن فعل أي شيء مؤثّر، لذلك أنوي الخروج إلى تركيا مبدئيًا.

- فاجأتني..

تلفون زياد يصدر صوت تنبيه، قال زياد وهو ينظر إلى شاشته: إنّها رسالة بريد إلكتروني سأقرأها إذا سمحت لي. أشار حسن برأسه موافقًا وهو يفكّر في هجرة زياد.

«.. كثيرًا ما كنتُ أفضّل أن تبتعد عني وتنساني، أو تتناساني، حتى يكون مبررًا لقلبي بهجرك، وعندما لم تفعل أنت، حاولتُ أنا أن أبتعد عنك، ولكنّ قلبي أبى أن ينزع أيّ ذكرى منك، أنت يا دائي ودوائي. كم تمنيت لو أنساك كرمى لعيون سلمى، هذه المرأة التي أرى أنها مظلومة بيني وبينك. هل تذكر يوم التقيتك آخر مرة، يومها جاءتني أفكار جنونية، كم تمنيت أن أذهب إليها وأدعها تصفعني على وجهي ما طاب لهاكي لا أعود وأفكّر بك. أقنعْتَني أنّها لا يمكن أن تفعل ذلك، فقد تبكي من أجلي، ومن أجلها أيضًا، وقد تتركنا وتغادر، لذلك تراجعت. بعدها كنتُ أكتب لك كل يوم رسالة على أوراق دفتر لم يبق منه أية ورقة، لأنّي مزقتها جميعًا. رسائلي لك كانت مؤلفة من جملة واحدة فقط: كم أكرهك يا زياد. ولكن قلبي سرعان ما

يكذّبني ويدفع قلمي ليدسّ كلمة: (بُعد) بين الهاء والكاف لتصبح: كم أكره بُعدك يا زياد.

أنا اليوم تائهة بعد أن فقدتّ بوصلتي، كسولة ومهملة بعد أن ضاع هدفي. الأماكن كلها تضيق بي. هواء بيروت لم يعد ينعش روحي كما كان.. وأنا هنا في غرفة ضيقة لأحد الأقرباء أنتظر المجهول.

التوقيع: نوران».

تنهّد زياد بشكل لا إرادي وقد ظهرت على وجهه ملامح الحزن والإحباط، فبادره حسن:

- أنت بحاجة إلى القليل من القهوة العربية لتعدل مزاجك، أرى أنك لست على ما يرام بعد قراءة الرسالة، تفضّل اشرب وادعو لي.

تناول الفنجان وهو يتململ في مكانه وكأنّه يعيد توازنه الذي بدا أنه فُقد للتو قائلًا:

- سلمت يداك، فأنا غرقتُ في عالم آخر.

- يبدو أنّنا جميعًا غارقون بنسب متفاوتة وننتظر معجزة الخلاص.

ناوله فنجانًا آخر وقال محاولًا قراءة ما يدور في رأس زياد:

- هل الرسالة تتعلّق بالسفر إلى تركيا؟

هزّ زياد الفنجان بيده معلنًا اكتفاءه قائلاً:

- إنّه صديق قديم يراسلني من لبنان.

قال حسن متأسفًا:

- لم تبق زاوية من زوايا الأرض إلا ويقبع فيها مهجّر سوري. أحيانًا ألوم نفسي لبقائنا هنا، وأشعر بالندم على عدم خروجنا كما خرج غيرنا إلى الأردن، أو لبنان، أو تركيا. بصراحة كلّما تذكرتُ تلك الحادثة التي جرت معنا ينتابني الهلع من أن تتكرّر وبشكل أسوأ، ومن يدري، فكل شيء وارد.

- في الواقع أصبحنا في غابة، فهؤلاء المسلحين برأيي يتبعون لفصيل من الفصائل، ويعملون قطاع طرق عندما تسمح لهم الفرصة، وربما كانوا يعتقدون أنّنا نحمل حقيبة من الدولارات ونبعثرها بين الخيم، فاحتجزونا تلك الساعات، وعندما قاموا بتفتيشنا فاجأتهم دفاترنا وأقلامنا، فأرادوا أن يتّهمونا بأنّا صحفيون نعمل لصالح النظام أو لأي جهة أخرى لا تعجبهم، إلى أن تأكّدوا من بعض الأسماء الذين سلّمتهم الجمعية إعانات من الطعام والشراب، فلم يبق لهم أية حجّة لاحتجازنا أكثر مما فعلوا، فأطلقوا سراحنا.

- تحليل منطقي، وإلا ما كان سيُعرف لنا مصير والله أعلم. هل أخبرتَ سلمى بهذه الحادثة؟

- لا.. أبدًا، وإلا لن تجعلنا نبقى هنا يومًا واحدًا. على كلّ حال سأقوم بترتيب الأمور خلال هذا الأسبوع. وأنت، ألا تفكر بالخروج؟

أخذ حسن نفسًا عميقًا، ثم مطّ شفته السفلى وفتل كفيه إلى الخارج وقال: كنّا معًا ولم أفكّر، ولكن بعد سفرك لا أعرف ماذا ستخبئ لنا الأيام.. سيتوقف ذلك على حسب الوضع مستقبلًا.

- قبل أن أستأذن بالعودة، ماذا عن عمل يوم غد؟

- أعتقد أنّ الجمعية سترسلنا إلى المنطقة التي قصفها الطيران الروسي اليوم، لذلك سيكون لدينا عمل كثير غالبًا.

- إلى اللقاء.

.....

كانت معاناة الناس أكبر من أن تكتب في قصص وروايات، أو أن تُصوّر عبر هواتف نقالة، أو حتى أجهزة تصوير متطورة واحترافية لقنوات تلفزيونية إخبارية أو وثائقية تبث دون انقطاع. أعداد هائلة من المهجّرين الذين لم يُهَجّروا لمرة واحدة بل لمرات متتالية، حيث يتم استهداف مناطق خيمهم المتهالكة كل مرة من قبل الطيران الروسي أو المدفعية بعيدة المدى..

قال حسن بحزن وألم: هذا توحش فريد من نوعه، ولا أظنّ أن منطقة من العالم شهدت ما تشهده هذه الأرض من تفنن في الإبادة الجماعية لكتلة بشرية هائلة لا تملك عصا تدافع بها عن نفسها، وبموافقة ضمنية من أكبر الوحوش في العالم. ولا أعتقد أنّه توجد حاجة لشرح وتوصيف حياة الناس هنا والتي لا تليق حتى لعيش حيوان داجن. فهل بعد هذا يصحّ أن أذكر أنّ الأطفال محرومون من المدارس، وهم إن نجوا من الموت السريع يموتون بردًا وجوعًا وعطشًا ومرضًا ولكن ببطء. وكيف لأمٍ أن يغمض لها جفن ولها ولد يعاني من المرض والبرد والجوع؟ جرائم ضد الإنسانية تُنقل عبر المحطات الفضائية منذ سنوات عندما بدأت الثورة على نظام المافيا

والكيبتاجون.. وإلى اليوم، ولا أحد يحرك ساكنًا، وكأنّهم يشاهدون أفلامًا هوليودية، وهذا لعمري شيء غريب وسكوت مريب.

قال زياد وقد جمدت ملامح وجهه وتحجرت عيناه: هذا الوضع المأساوي يحتاج إلى تضافر جهود دول لوقف الحرب وإنهاء معاناة الناس العزّل، وتأمين حاجاتهم الضرورية أولًا بأول، وإلا أية جمعيات ستكون قادرة على تلبية حاجات الناس المتزايدة، علمًا أنّ الملايين قد نزحوا إلى دول الجوار، فكيف لو كانوا قد تجمعوا كلهم في الشمال. إنّه عار وأيّ عار هذا الذي لا يخجلون منه، أولئك القادرون على إنهاء هذه المأساة ولا يتحركون.

كان منظر الخيم والمتاع المحترق، وعيون الناس التائهة والدامعة قد هزّ كيان كلّ من قدِم ليرى هذه المنطقة المنكوبة، فلم يتمالكوا أنفسهم من البكاء متسائلين: لماذا يستهدفون الخيم؟ ما الخطر الذي تشكله هذه الخيم البائسة على النظام ودولة عظمى مثل روسيا؟

تخيل زياد لحظات القصف على المخيم وكأنّه يسمع الصراخ والعويل للتو، ويرى مناظر الخيم التي تمزقت أو اشتعلت النار بها وبأصحابها، بالإضافة إلى المصابين والضائعين الذين يتراكضون في كل الاتجاهات. اقشعرّ بدنه لِما صوّره له خياله، فلم يتمالك نفسه من الانهيار، فجلس على الأرض وأطرق مغمضًا عينيه للحظات بعد أن غطتهما غلالة ضبابية. لقد أصبح مصرًّا على الهجرة إلى تركيا القريبة أكثر من أي وقت مضى.

اقترب منه حسن قائلًا: هيّا، هيّا إلى السيارة، لم يبق لنا أي عمل هنا، أرى أنّك لست على ما يرام، ثمّ ساعده على القيام والسير حتى ركبا في السيارة لتنطلق بهم إلى مدينة الدانا.

كانت سلمى قلقة بسبب تباطؤ زياد في اتخاذ قرار الخروج إلى تركيا، ولكنّه اليوم بعد عودته كان أكثر وضوحًا في الموافقة الفورية على قبول المغامرة بالخروج، والتي لن تكون أكثر مجازفة من الوضع الصعب الذي يعيشانه مع الناس هنا. شربا القهوة وتبادلا الأحاديث حول خروجهم إلى تركيا وقدرتها على السير لمدة ساعة على الأقل حسب ما ذكر لهم الشخص الدليل الذي يقوم بتهريب كل عشرة أشخاص أو أكثر دفعة واحدة في طرق وعرة بين الشجر والوديان.

في اليوم قبل الأخير في أرض الشمال، أمضى زياد وسلمى سهرتهما في منزل الأستاذ حسن كوداع للعائلتين، وفي اليوم التالي أنهى بعض الترتيبات اللازمة مع الجمعية، وأجرى اتصالًا مع الشخص الدليل واتفقا على الأجر ووقت المغادرة.

إذا تقدمتم على شكل رتل أحادي ذلك أفضل، وانتبهوا إلى تعليماتي أرجوكم، عندما أقول توقفوا أو اجلسوا نفّذوها فورًا حتى لا يتم كشفنا ونمرّ بسلام. لا تقلقوا، معي داخل الحدود التركية شخص يساعدنا ويكشف لنا الطريق، وأنا على تواصل معه بالهاتف النقّال.. كان الشخص الدليل أو المهرّب

يعطي تعليماته لأكثر من عشرة أشخاص بينهم نساء وأطفال قبيل المغرب، حيث ستبدأ رحلتهم عبر الحدود طلبًا للأمان داخل الأراضي التركية.

عندما أسدل الليل خيوطه بدأت الرحلة من خلال أرض زراعية مشجّرة بالزيتون بالقرب من الحدود. لا تبدو المسافة بعيدة حسب ما تظهر أضواء المدينة التركية المقابلة في ولاية هاتاي، ولكن التوتر يسيطر على الجميع، ويزيد برد نهاية شهر آذار ارتجاف شفاههم وقشعريرة أجسامهم. همس زياد بإذن زوجته المضطربة: لا تخافي، فقط اشربي دواءك وستتحسن حالتك، وشدي عزيمتك برفقة هؤلاء النسوة والأطفال.

مشى الرجال في أول الطابور وهم يحملون حقائب خفيفة، ويتقدمهم المهرّب بمسافة مترين على الأكثر.

- انتبهوا هنا حفرة صغيرة، اجلسوا قليلًا.. تحرّكوا، سنعبر الطريق المعبّد ذاك بسرعة دون تأخير، فقد تمرّ دورية جندرما وتكشفنا، لا تدعوا الأطفال يبكون، أسكتوهم بأي شيء حتى ننتهي من الطريق بسلام..

عبروا الطريق المعبّد مسرعين كما أوصاهم المهرّب، ثم هبطوا في خندق غير عميق بالقرب منه، وسمعوا لهاث بعضهم البعض، فتلكؤوا قليلًا وتهامسوا، ثم تابعوا طريقهم حتى وصلوا الشريط الشائك، فدخلوا من خلال فتحة كان قد عملها المهرّبون لتسهيل الدخول، ثم مشوا عبر منحدر بجوار واد عميق يحفّه شجر كثيف. في هذه الأثناء كانت دورية للجندرما التركية تتفحص المنطقة وتطلق أعيرة نارية تحذيرية لمنع الاقتراب من الحدود.

جندي يخاطب زميله بعد رشقة من الرصاص: قف لحظة، هناك صراخ وبكاء. حددوا اتجاه الصوت وركضوا نحوه وهم يحملون مصباحاً يعمل على البطارية.

كان يتضح أنه صوت بكاء رجل كلما اقتربوا أكثر، عند وصولهم وجدوا امرأة ممددة ومغمى عليها على حافة حفرة صغيرة، ورجلًا يبكي عند رأسها يحاول أن يوقظها.

- ماذا يجري هنا؟ هل هي مصابة؟ ابتعد قليلًا. صاح جندي بلغة عربية مفهومة ثمّ شدّ الرجل من كتفيه.

حاول الجندي الآخر تحريك المرأة ومعرفة حالتها حية أو ميتة، ثم اتصل بجهازه اللاسلكي طالبًا من زميله رفع ضوء الكشاف باتجاه الأعلى مع تغيير في اللون كل ثانية. أما زياد كان يبكي بحرقة طالبًا من الجنديين أن يسعفوها. ولكن الجنديين كانا يوبّخانه بصوت عال:

- ما الذي جاء بكما إلى هنا؟ ألا تعرفان أن الدخول عبر الحدود ممنوع وخطر؟ من كان معكما؟ أين ذهبوا؟

ارتبك زياد وهو يمسح دموعه التي غطت وجنتيه وقد تردد في الجواب، فقال الجندي ناصحًا: نحن سنتكفّل بالمرأة وأنت عليك اللحاق بمن كان معكما، أسرع، وإلا سيصل الضابط ويعيدك من حيث أتيت. عاد زياد يذّكر الجنديين بالإسراع في اسعاف سلمى ولكنهما دفعاه ليذهب ويتدبّر نفسه، فقد كانت جلبة قريبة تدل على وصول مجموعة أخرى من الجنود.

غاب زياد في الظلمة بين الأشجار مسرعًا وهو يمسح دموع بكائه الصامت محاولًا اللحاق بمجموعته، حيث تمكن من الوصول إليهم بعد وقت قصير، إذ باتوا مترددين بين أن يسرعوا أو يتوقفوا بعد أن تمّ اكتشاف أمرهم كما بدا لهم، ولكنّ المهرّب كان يحثّهم على المتابعة قائلًا أسرعوا ولا تخافوا، سيسعفون المرأة ويعيدونها إلى الحدود مع زوجها، ولكن وصول وقع أقدام زياد إلى أسماعهم جعلهم يتوقفوا. كان الجميع مرتبكًا ومنتظرًا إطلاق الرصاص، أو كلمة توقفوا، معتقدين أن جنود الجندرما لحقوا بهم، إلا أن ظهور زياد قريبًا منهم جعل الرجال يمطرونه بالأسئلة: ماذا حلّ بزوجتك؟ هل تركوك أم هربت منهم؟ كيف تركتها؟ هل ماتت؟ هل اكتشفوا أمرنا؟

لم يتمكن زياد من الإجابة على كل أسئلتهم بعد هذه الصدمة وإحساسه بثقل لسانه الذي بدا أنه يلتصق بحلقه، فتأتأ وأشار لهم بيديه حتى فهموا، فتهامست النساء: الله يساعده.. ارتبط لسانه.

وصل الجميع إلى وجهتهم من خلال أقارب أو أصدقاء لهم كانوا بانتظارهم في الطرف التركي. كان على زياد القبول بـأن يبيت ليلته عند أبي أحمد الذي جاء إلى هنا قبل أشهر وهو قريب أحد الأشخاص الذين دخل الحدود معهم. عندما يصاب الإنسان بالفقد يصاب تفكيره بنوع من الشلل ويتحرك جسمه كالآلة. توضأ زياد وصلى وأكل وشرب كما فعل الباقون، ولكن كآلة مبرمجة ونظرات تائهة، ثم استلقى على فراشه الذي خُصّص له استعدادًا للنوم.

«إنّي لا أستوعب ما حدث! هل أصابتها رصاصة كما ادّعت إحدى النساء؟ قالت: إنها سقطت عند إطلاق النار مباشرة وقد تكون أصيبت وفقدت الوعي. ولكنّي لم أر إلا القليل من الدماء عند رجلها. إن شاء الله يكونوا أسعفوها..» كان زياد يحدّث نفسه.

في صباح اليوم التالي كان عليه وعلى الآخرين تأمين عنوان الإقامة من أجل استخراج بطاقة الحماية المؤقتة، ويتمّ ذلك من خلال استئجار شقة سكنية. والبحث عن الشقق والبيوت المناسبة كانت مهمّة أبي أحمد الذي أصبح خبيرًا بأحياء المدينة وشوارعها وبيوتها بعد أن عمل دلالًا، فرافقه زياد ليعاين الشقّة التي قال أنها مناسبة لعائلة صغيرة وليس لديها أطفال، كما يشترط صاحب الشقة. لم يكن لديه الكثير من الخيارات فالشقة تفي بالغرض، وفيها بعض الأثاث الأساسي، بحيث يتمكن لاحقًا من شراء ما يلزمه من محلات الجديد والمستعمل، ليتفرغ للبحث عن سلمى وعن عمل يؤمّن له لقمة العيش. سدّد الأجرة الشهرية بالإضافة إلى التأمين المطلوب، واشترى حاجته من الطعام والشراب، وقرّر الاستراحة بقيّة يومه.

استطلع الشقّة لوحده هذه المرة، وتوقّف مقابل المرآة المثبتة فوق المغسلة، كان الوجه الذي عكسته المرآة مشوهًا. ارتعدت فرائصه وكأنّ شخصًا آخر يقف خلفه، وبحركة سريعة استدار بكامل جسمه فلم يرى إلا الجدار المقابل. عاد إلى النظر في المرآة وقد سبقته يده لمسحها، فتحسست أصابعه

كسرًا ضاع تحت طبقة من الغبار وبقع الصابون المهمل، رشها بالماء ونظفها، وبان كسرها الذي يشوه الوجه.

تابع طريقه إلى الحمّام فقرر أن يغتسل علّ التوازن يعود إلى جسمه وفكره، ويتخلص من بعض الإنهاك الذي أصابه.

خرج زياد من الحمّام ومازال الماء يقطر من أطراف شعره وينزلق على جسمه، فقد نسي بشكيره وثيابه في حقيبته الصغيرة التي جلبها معه. مدّ يده داخل الحقيبة فوقعت على دفتره المغلف بالغلاف البلاستيكي الأسود، فأخرجه وحضنه براحتيه، ثم حاول أن يباعد بينهما ليفتح تلقائيًا على صفحة كُتب في أعلاها: ندوة بعنوان حياة المرأة في الريف للأديبة نوران، في هذه الأثناء شعر بإصبع بارد يتحسس ظهره بدءًا من رقبته نزولًا وفق عموده الفقري، نظر خلفه وقد اقشعرّ جلده فلم يجد شيئًا، انتبه أنّه مازال عاريًا ومازالت قطرات الماء تنحدر ببطء من شعره وجسمه، فأسرع وأخرج بشكيره ومسح ما بقي من الماء وارتدى ثيابه وقال: كدْت أصدّق وساوس نفسي بأنّه يوجد من يشاركني هذه الشقة..

جلس على الأريكة، واستند إلى وسادتين، وأمسك بهاتفه النقّال، وأراد أن يكتب رسالة بريد إلكتروني لنوران. أمضى بعض الوقت وهو يكتب ويمسح ما كتبه، ثم تراجع عن الكتابة حيث شعر بثقل في جفنيه، فتمدّد على الأريكة يستجلب النوم. عندما أغمض عينيه عاد شريط الأحداث إلى الواجهة يعرض له كل التفاصيل التي يتذكّرها والتي كان قد نسيها، مما أبعد

النعاس الذي كان قد داهمه. عندما وصل إلى حالة من اليأس في استجلاب النوم اعتدل في جلسته وتناول جهاز التحكم بالتلفاز. كان ينتقل من قناة إلى أخرى علّه يحظى بقناة عربية بين هذه القنوات التي لا يفهم لغتها، والتي كانت تعرض الكثير من الإعلانات. كاد أن يملّ ويطفئ التلفاز لولا أنه وجد قناة تركية تبثّ بالعربية، فتابع المذيعة الشقراء وهي تستعرض بعض الأخبار المستهلكة عن لقاءات بين الروس والأتراك وسوتشي مما يتعلق بالمعضلة السورية، ثم انتقلت المذيعة إلى أخبار محلية وثقافية، والتحضير لمعرض الكتاب الذي سيقام في مدينة أنطاكيا بولاية هاتاي، وبعد حوالي الساعة من متابعة التلفاز تسلّل النوم إلى عينيه وأفلت جهاز التحكم من يده دون أن يشعر وغطّ في نوم عميق.

أفاق زياد وعيناه تجولان فيما حوله، وكأنّه يتأكد من حقيقة المكان الذي هو فيه، وأنّ عهد الخيمة قد ولّى إلى غير رجعة، أطفأ التلفاز، ونظر في ساعة تلفونه النقّال وتأكّد بأنه نام طويلًا وقد بدأ صباح يوم آخر. شرب قهوته وارتدى ثيابه وانطلق إلى دائرة الهجرة للحصول على بطاقة الحماية المؤقتة ليصبح وجوده شرعيًا على الأراضي التركية. لم يكن زياد يعرف الطريق إلى دائرة الهجرة ولكنّ أبا أحمد الدلال كان قد رسم له مخطط الطريق إليها فوصلها بسهولة بعد حوالي عشر دقائق من السير على قدميه. وقف في الطابور منهك الجسد والروح، ينظر في الوجوه ويتفحّصها، يراها صفراء مريضة، هاربة من الجحيم إلى المجهول. تذكّر وجه سلمى الذي كان

قد رآه مصفرًا على ضوء الكشاف، اغرورقت عيناه بالدموع، فمسحها بمنديل أخرجه من جيبه على عجل، وبعد حوالي ساعتين حصل على ورقةٍ مطبوعة تتضمّن صورته ومعلوماته الشخصية، وموعدٍ يحدد زمن مراجعة دائرة الهجرة للحصول على بطاقة الحماية المؤقتة.

عاد إلى شقّته وهو ينظر يمينًا وشمالًا، ويتفحّص وجوه الناس، وواجهات المحلات، والأبنية، والسيارات العابرة، ويتساءل في نفسه: هل سأجد سلمى في المستشفى يا ترى كما يتوقّع أبو أحمد الدلال؟ قال:« من الممكن أن يأتوا بها إلى مستشفى الدولة في أنطاكيا بعد أن يستخرجوا لها ورقة بيانات من دائرة الهجرة، ثم إذا خرجت من المستشفى يمكنها أن تذهب إلى حيث تشاء لتأمين السكن.»

****

-7-

أمضى زياد ليلته وهو يتخيّل كيف ستسير أحداث الغد، وهل سيجد سلمى أم أن مكروهًا قد أصابها. في الصباح انطلق يسأل عن باصات أنطاكيا، ولحسن حظّه أنّ نسبة كبيرة من الأتراك في هذه الولاية يتكلمون اللغة العربية بلهجة قريبة من لهجات البدو، مما سهّل مهمته.

في المستشفى سأل في مكتب الاستعلامات عن مريضة باسم سلمى سليمان، قالت له الموظفة: لا يوجد مريضة بهذا الاسم، عاد ورجاها أن تبحث في سجلات المرضى ليوم أمس أو قبله، بحثت الموظفة في جداول حاسوبها ثم أخبرته بأنّ المريضة تخرّجت أمس. فقال متفاجئًا: يعني خرجت حيّة؟ ضحكت الموظفة وقالت: أكيد حيّة، هل تريدها أن تخرج ميتة؟ ابتسم مرتبكًا وقال وهو يداري خجله: بالتأكيد أريدها حيّة ولكن خانني التعبير، هل يمكن معرفة العنوان الذي ذهبت إليه؟ هزت الموظفة رأسها مشيرة إلى عدم معرفتها. قدّم زياد شكره لها وخرج من المستشفى محبطًا رغم فرحه بأنّ سلمى على قيد الحياة. سار وهو يفكّر في كيفية إيجادها في هذه الولاية الكبيرة، هل أنشر إعلانًا في الجريدة الرسمية، أم أخبر الشرطة؟

في الشقّة بعد أن استراح قليلًا رأى أن يكتب لصديقه الأستاذ حسن، وكذلك لنوران، ويخبرهما بأنّ سلمى حيّة ترزق ولكنها الآن بحكم الضّائعة بالنسبة له، وأنّهلن يملّ البحث عنها حتى يجدها. بعد أن انتهى من

الكتابة كان الوقت في نهاية النهار، فتناول بعض الطعام الذي كان قد تركه بالثلاجة يوم أمس، ثم تمدد على الأريكة وقد غلبه النوم.

قرأت نوران رسالة زياد بشغف واستغراب، وكانت مصدومة ومشفقة، وتساءلت: كيف ذلك؟ أين ذهبت المسكينة؟ وماذا لو لم يجدها؟ يقول أنّه أصبح وحيدًا، فهل يقصد أنها ضائعة فعلًا أم ماتت؟ عادت وقرأت رسالة زياد عدة مرات لتفهم ما بين السطور.

عزيزتي نوران: إذا كنتِ تائهة في بيروت فأنا أصبحت تائهًا في هاتاي.. وما حدث لنا على الحدود السورية التركية كان غريبًا ولا أعرف كيف حدث.. لقد أصبحت وحيدًا، وأنا أفتقدك..

كلمات زياد هذه المرة أجّجت نار الحب في روحها وجسدها، وبعثت الأمل في نفسها كما تُبعث الحياة في زهرة ذابلة طالها الماء بعد العطش، لكنّها أجّلت الردّ إلى وقت آخر. في اليوم التالي كانت نوران قد حزمت أمرها وقرّرت السفر إلى تركيا بحجّة معرض الكتاب الذي سيقام في هاتاي، حيث سيكون لها كتابين في إحدى دور النشر المشاركة في المعرض. لن أخبره الآن.. قالت في نفسها وتابعت: في أنطاكية سأقرّر كيف سألتقي به وقد أتمكن من إنهاء أربع سنوات من الصّراع النفسي. وتساءلت ماذا لو ظهرت سلمى؟ ثم استدركت: حينها لكل حادث حديث..

بدأت نوران بإعداد جواز السفر والتأشيرة، وأوراقها الثبوتية الأخرى استعدادًا للسفر، على أن تصل قبل معرض الكتاب الذي سيقام بعد أربعة

أيام. لأوّل مرة تشعر بحماس يطير بروحها متجاوزًا حدود الزمان والمكان لتعانق روح زياد قبل أن تصل هناك، إلى أنطاكية، إلى معرض الكتاب، بل إلى منزل زياد. تتخيل لحظات اللقاء: ستكون الثواني حتى نصل إلى بعضنا زمنًا طويلًا، ولكنّي في النهاية سأباعد بين يديّ ثم ألفّه إلى حضني، وسيفعل هو نفس الشيء بالتأكيد، أما وجهينا سيكونان متخالفين في الجهة، وهذا ليس جيدًا، بل سأضع خدي إلى خده، هذا أفضل. هل من المعقول أن ألتقيه بعد هذه المدة الطويلة ولا أقبله! إذًا: سأقبّله على خدّه وكذلك سيفعل هو بالتأكيد، أما قبلة الشفاه سنتركها إلى المنزل حيث لا يرانا أحد. فقط؟ ثم أجابت بصوت مسموع: فقط، وهي تبتسم منتشية.

كان إيجاد عمل مناسب يشغل تفكير زياد أيضًا، وهذا ما عمل عليه في اليومين الثالث والرابع من وصوله إلى مدينة ريهانلي، فقد استطلع بعض أحياء المدينة القريبة ووجد فيها مدارس سورية لكل المراحل، وقد أخبروه أنّها مدارس مؤقتة، كما هي بطاقة الحماية لكيلا ينقطع الطلاب عن تعليمهم، ويمكنه أن يقدّم سيرته الذاتية الآن ليعمل كمدرّس في العام القادم بعد التأكد من مؤهلاته، وإجراء مقابلة يتم تعيين تاريخها لاحقًا، وهذا ما أمضى به ساعات هذين اليومين، وهو يلفّ الشوارع بحثًا عن المدارس.

في المساء نظر في هاتفه النقال إلى رسائل الواتساب التي استلمها حديثًا فكانت رسالة من الأستاذ حسن، حيث دعا له بأن يجد سلمى بأقرب وقت،

وأنّه يفكر مع عائلته بالهجرة إلى ألمانيا أو إلى أي دولة أوربية أخرى إن تمكّن من ذلك، فالعيش أصبح لا يطاق في الشمال السوري. ثم انتقل زياد إلى رسائل بريده الإلكتروني فوجد رسالة من نوران قرأها بلهفة:

هل تعلم أنّك لم ترسل لي رقم هاتفك التركي؟ فقد أضطر للاتصال بك أو أن أحادثك على الواتساب. التوقيع: نوران.

لم يتأخّر بالرد، ولكنه استغرب منها أنها تجاهلت كل ما كتبه لها في رسالته السابقة، وأحجم عن سؤالها، وبات فكره يذهب إلى نوران ثم يعود إلى سلمى ثم يعيد الكرّة، حتى شعر برأسه يتأرجح كالطفل في أرجوحته دون الرغبة في أن ينزل عنها.

في الصباح أفاق مجهدًا وكأنّه لم ينم ليلته التي طال سهره فيها، توجّه إلى المطبخ بعد أن اغتسل فوجده مهملًا، ورائحة كريهة تفوح منه، فتحامل على نفسه ونظّف الصحون والأواني التي كان قد ترك فيها القليل من الطعام، وجمع زبالته المتراكمة وألقى بها في الصندوق خارجًا، ثم صنع لنفسه إبريقًا من الشاي وتناول صمونة محشوة بالجبن، وقال في نفسه: إنّ حاجة النساء إلى الرجال ليست بقدر حاجة الرجال إلى النساء، وبالتالي صعلوك من لا يقدّر تعب زوجته ويهضم حقّها، ولكن ماذا لو كانتا اثنتين؟ فيمكنهما أن تتقاسمان أعباء المنزل، وتحمل إحداهما عن الأخرى فلا تتعبان. صحيح أنّي أحلم، ولكنّي قلت بدون قصد ما يطابق حالتي، تحمل إحداهما عن الأخرى، فسلمى لا تحمل والأخرى.. يمكن أن تحمل. سكت برهة وقال

بصوت مسموع: ولكن أين أنت يا سلمى؟ هل أذهب إلى مخفر الشرطة أم ماذا عليّ أن أفعل؟

قرّر زياد الذهاب إلى مخفر الشرطة لتقديم بلاغ عن فقدان سلمى، فاتفق مع أبي أحمد الدلال ليساعده في هذا الأمر، فحلق ذقنه التي يهملها لمدة أسبوع أو أكثر، ثم لبس ثيابه، وخرج حسب الوقت المتفق عليه مع الدلال. في المخفر قدّم لهم المعلومات المطلوبة والخاصّة بسلمى، وهي الاسم الكامل، وزمان خروجها من المستشفى، وصورة شخصية لها، بالإضافة إلى معلوماته كالعنوان ورقم الهاتف.

في طريق العودة كان يفكّر زياد بضرورة تعلّم اللغة التركية، فهناك الكثير من الموظفين الأتراك القادمين من خارج مدينة ريهانلي لا يعرفون العربية بشكل جيد، وحتى لا يقعون في أي إشكال في الفهم مع السوريين المتواجدين في هذه المدينة بشكل كبير يطلبون ترجمانًا. في هذه اللحظات رنّ هاتفه وقد ظهر على شاشته رقم غير مسجل في قائمة اتصالاته فظن أنه من المخفر:

- ألو؟

- منْ تتوقع؟

كان يتوقّع صوت رجل الشرطة، ولكنه تفاجأ بصوت امرأة يكاد يعرفها، لولا أنّ الصوت جاء في زحمة تركيزه على المخفر وسلمى واللغة التركية، فصمت قليلًا ليستوعب من تكون هذه المرأة ثم أجاب بلهفة:

- أين أنت يا مجنونة؟ إنّه رقم تركي.

- هذا رقم سائق التكسي فقد وصلت للتو إلى مطار أنطاكية، إعطِ السائق عنوانك وانتظرني.

- أكاد لا أصدّق.. تمام، تمام، إليك العنوان حضرة السائق..

عاد زياد إلى الشقّة مسرعًا ينظر في أرجائها، رتّب بعض أثاثها، ونظّف الصالون، والممر إلى الحمّام، ومسح المرآة التي ما زالت مكسورة، وألقى نظرة على المطبخ، ورشّ بعض العطر في فضاء الشقّة وزواياها، ثم جلس ينتظر. لكنّه ما لبث أن تحرك باتجاه باب الشقّة وهو يشعر بتوتّر غامر يكاد يفقده توازنه بعد أن اقترب اللقاء مع نوران الحبيبة القديمة، والخالدة في نفسه وروحه.

عندما وصلت سيارة التكسي كان زياد يقف كالتمثال أمام باب الشقّة، وعيناه ككرتي زئبق تتأرجحان في ناحيتي الطريق الفرعي الهادئ، ودقّات قلبه في تسارع واضح تضرب في أذنيه. انزاح باب السيارة عن وجه نوران الذي لم يتغيّر كما يراه زياد، بل ازداد بشاشة وإشراقًا من دون إسراف في المساحيق التجميلية كما كان يوصيها، كانت المسافة بينهما قريبة، فلفّته بلهفة إلى حضنها خلال ثانيتين، وانتهى العناق بقبلتين متبادلتين على الخدّين كما تخيّلت من قبل، فشمل من عبير عطرها المميّز، لتعيد له نبض رغباته التي فقدها منذ زمن طويل عندما مرضت سلمى. في هذه الأثناء

أنزل السائق حقيبة السفر وغادر، فسحبها زياد إلى الداخل بعد أن دخلت نوران قبله.

في الصالة تراجع توتّر زياد قليلًا وقد وقفا أمام بعضهما البعض يبتسمان بنشوة وفرح، فرحب بها قائلًا: أكاد لا أصدّق! فجاوبته: مجنونة. ثم عادت ولفّته ثانية إلى حضنها وقد أطبقت على شفتيه.

جلسا على الأريكة متقاربين ومتواجهين، يتحدّث كل منهما إلى الآخر عما خفي عنه في كلّ شاردة وواردة، ويستمعان لبعضهما البعض بكلّ شغف، حتى مضت ساعة وأكثر وهما على هذه الحالة من الحديث. بعد ذلك تنبّه زياد إلى أنّها مازالت في ثياب السفر، فطلب منها أن تبدّل ثيابها وترتاح قليلًا، ريثما يذهب إلى السوق القريب ويحضر الطعام ونواقص المطبخ.

عندما خرج زياد تفحّصت الشقّة، ثمّ أخذت دوشًا سريعًا ووقفت أمام المرآة المكسورة تجفّف شعرها الذي يصل إلى منكبيها. ضحكت من صورتها المشوّهة في المرآة، فانزاحت إلى جزء سليم منها لترى أثر سعادتها بلقاء زياد، وبعد أن انتهت، شعرت بحاجتها إلى بعض القهوة، فاتجهت إلى المطبخ الذي كان نظيفًا ومرتبًا، وهذا ما عهدته عن زياد الذي يهتمّ بأدقّ التفاصيل، ولو أنها رأته مهملًا كما كان يوم أمس لعذرته على الأغلب، واعتبرت ذلك حالة استثنائية. لم يتأخّر زياد في العودة من السوق، وهو يشعر بخفّة حركة جسمه، وكأنّه يقفز كالأطفال. دخل الشقّة وعيناه

تدوران في الأرجاء ليؤكّد لنفسه أنّ الحلم حقيقي، وأنّ نوران تشاركه الآن في سكنه. كانت رائحة القهوة تعطّر الأجواء ولكنّها هذه المرة بلمسات أنثى. دخل المطبخ ليفرغ ما تحمل يداه من أكياس وعلب، ونوران مازالت تحرّك القهوة وقد ارتدت ثوبًا خفيفًا، يكشف عن جمال ذراعيها وساقيها ويشفّ عن قوامها المكتنز وصدرها المترع بالعافية. وقف برهة وهو يحدّق النظر في هذا الجمال الذي حُرم منه لسنوات وقال:

- أيتها الحسناء الجميلة لا تتعبي نفسك فأنت اليوم ضيفتي، وسأقوم على خدمتك.

افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة وهي تحمل صينية الفناجين إلى الصّالة وقالت:

- لا تصدّق أنّي سأُتعِبُ نفسي اليوم بأكثر من عمل القهوة، لأنّي بعدها سأجّرب النوم في نهار تركيا.

جلسا على الأريكة وقد وضعت الصينية أمامهما على طاولة صغيرة، فأخذ فنجانه ورشف منه وقال مستنكرًا:

- وأنا ماذا سأعمل أثناء نومك يا روحي؟

- وماذا كنتَ ستعمل لو لم آتي؟

- لا أدري بالضبط؟ فقد ذهبتُ صباحًا إلى المخفر وأبلغتُ عن اختفاء سلمى، وأثناء عودتي من هناك جاءني اتصالك.

ارتشفت من فنجانها رشفة وقالت بمكر:

- إذًا، غالبًا ستفكر بسلمى.

- هل هذه غيرة؟

- لا، أبدًا، ولكن لو لم آتي فقد تفكّر بها بعد أن أبلغْتَ الشرطة، وهذا طبيعي.

- المهم أنّها حيّة ترزق، وأعتقد أنّهم لن يتأخروا في إيجادها.

- صحيح.. ماذا لو أتت ووجدتني هنا؟ هل فكرْتَ بالأمر؟

- لا أدري بالضبط، ولكن يمكن أن أقول أنك ضيفة.

- ستقول لك: كيف ضيفة وتنامان معًا في فراش واحد؟

- وهل ستأتي ونحن نائمان؟ وعلى فرض أنّها سألت، سيكون جوابي أنّي أنام على الأريكة.

- وبالطبع أنت تقصد أن تداري شعورها، أليس كذلك؟

- وماذا أفعل إذًا؟ وإلى ماذا تلمّحين؟

- أعرف أنّك لبيب، يعني كيف سننام نحن الثلاثة في هذه الشقّة الصغيرة التي لا تحوي إلا على فراش واحد؟

تابعا شرب القهوة وهو يفكّر بعمق واهتمام ما تعنيه بكلماتها التي لاحظ أنّها جادة هذه المرة، أمّا نوران فكانت تنتظر منه أن يجيب.

- نوران، هل توافقين على الزواج بي أم ما زلت تحسبين حسابًا للآخرين؟

نظرت في عينيه المتأرجحتين في النظر إلى عينيها وقالت:

- وماذا عن سلمى؟

- سلمى لن تعترض.

- وأمّي موافقة ولم يعد يهمّني الآخرين.

- إذا انتهيت من فنجانك هل يمكن أن تضعيه على الطاولة.

- نعم انتهيت وهذا هو يجلس على الطاولة.

لم تكد تعتدل حتى مال عليها يحضنها ويقبّل وجهها بشكل عشوائي، وقد تفاجأت من ردّة فعله التي أضحكتها حتى قلبت على ظهرها، لعدم تمكّنها من الصمود أمام اندفاعه تجاهها، حتى أصبحت تحته تمامًا وهو يستند إلى ساعديه ويقبّلها تارة، وينظر إلى وجهها الضاحك تارة أخرى.

- يكفينا هذا الآن، دعنا نتناول الطعام، لقد أحسست بجوع شديد.

- آه، صحيح سنتناول الطعام أولًا.

- لا يوجد ثانيًا قبل الزواج في المحكمة.

ضحك وقال:

- ذهبتِ بعيدًا.. ولن يكون قبل أن ننتهي من الإجراءات. غدًا سأسأل أبا أحمد الدلال عن الأوراق المطلوبة للزواج فقد يكون لديه علم بذلك، ويمكن أن نذهب إلى البلدية بعد غد.

- بعد غد سنذهب إلى معرض الكتاب، لم تترك لي أي مجال لأخبرك. وسأحتاج إلى إقامة أيضًا.

- لا يهم، سنعمل كلّ ما يمكن عمله دون أن نتوقف ولا نضيّع وقتًا.

- فلنأكل ونحتفل إذًا.

- هيّا.

عمل زياد ونوران منذ اليوم التالي على استخراج بعض الأوراق المطلوبة، وحضرا معًا معرض الكتاب، ثم عملا على استخراج باقي الأوراق الخاصّة بالزواج، وتمّ تسجيل زواجهما في البلدية كزواج مدني كما هو في القانون التركي، وحصلا على دفتر عائلة.

كانت السعادة تغمرهما، حيث أمضيا كثيرًا من الوقت كشهر عسل في عدة مناطق في ولايتي هاتاي، إذ أن حامل بطاقة الحماية المؤقتة ممنوع من التجول بين الولايات التركية دون إذن سفر مسبق، والذي يأخذ وقتًا طويلًا للحصول عليه في حال تمت الموافقة.

في هذه الفترة كانت الشرطة تبحث عن اختفاء سلمى أو معرفة أين ذهبت، فتابعت خروجها من المستشفى على تسجيلات كاميرات المراقبة المنتشرة في كل مكان، وقد ظهر لهم أنها كانت برفقة امرأة سورية اعتمادًا على الزي الذي تلبسه، وقد خرجتا معًا من المستشفى في اليوم التالي لقدومها. عند مراجعة الشرطة للعنوان الذي يخص المرأة وقد حصلوا عليه من المستشفى، وجدوا أنه بناء مستأجر في مدينة أنطاكيا لإحدى الجمعيات الخيرية السورية، ويكفلون فيه عددًا من النساء الأرامل والوحيدات اللواتي ليس لهن معيل. وقد وجدوا فيه امرأة تدعى سلمى سليمان، عندما سألوها عن

شخص اسمه زياد، قالت من زياد هذا؟ فأنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم، وأصرّت على أنّها لا تعرفه رغم إلحاح الشرطي في سؤالها.

بعد أن عاد زياد ونوران من رحلتهما، وجدا ورقة ملصوقة على باب الشقة مكتوب عليها باللغة التركية، فترجمها زياد باستخدام برنامج الترجمة المثبت على تلفونه النقّال، ففهم أنّها من مخفر الشرطة ويجب مراجعته.

لم يتمكن زياد من مراجعة المخفر حينها بسبب تأخّر الوقت، ونام ليلته يحلم بما يمكن أن يحدث معه يوم غد.

توقّفت التكسي مقابل المخفر من الجهة الأخرى للطريق، نزل زياد وقد رأى سلمى تقف بجانب شرطي تلوّح له بيديها، لم يتمالك نفسه فركض باتجاهها يقطع الطريق، ثم غابت سلمى عن ناظريه، كان زياد يشعر بآلام شديدة في كل أنحاء جسمه، وعيناه مغمضتان يحاول فتحهما، وبصعوبة لمح امرأتين تقفان قريبًا من رأسه إلى جانبي السرير الذي ينام عليه، وتتجادلان فيما بينهما بحديث يتكرر فيه ذكر اسمه، ثم اقترب وجه إحداهما من أذنه وقالت له: إنّ سائق السيّارة التي صدمتك تمكّن من الهرب، لكنّك كنتَ متسرّعًا بعبور الطريق، ثم صاحت المرأة الأخرى: زياد، زياد، ما حدث لك كان بسببها. فجلس مرعوبًا وهو يتلفّت حوله متعوذاً من الشيطان. احتضنته نوران وقبّلته قائلة: حبيبي يبدو أنك كنت تحلم، ثم ناولته كأسًا من الماء، فشرب وحمد الله أنه مجرد حلم. عندما سألته

نوران عمّا رآه، أكّد لها أن لا شيء مهم خوفًا من أن يتحقّق حلمه حسب اعتقاده.

كان الوقت صباحًا فشرب قهوته ثم ذهب إلى المخفر، فأخبروه هناك بضرورة مراجعة مخفر حي دوغان أوغلو في أنطاكية، فأخذ العنوان وانطلق إلى أنطاكية يحدوه الأمل في إيجاد سلمى بعد عشرة أيام من البلاغ. في المخفر سأله الضابط:

- كيف تقول أنّ سلمى زوجتك وهي تقول أنّها لا تعرفك.

- هل وجدتموها؟ أين هي؟ قال متفاجئًا من كلام الضابط.

- سنأتي بها إلى هنا، وسنرى إن كانت تعرفك أم لا، فإن لم تكن تعرفك سيكون وضعك سيئًا.

- موافق.

بقي زياد جالسًا ينتظر بقلق وهو يمسح عرقه الذي يتصبّب رغم الجو المعتدل في الغرفة، وأسئلة شتّى تسرح في مخيلته: هل يمكن أن تكون هي؟ لماذا تقول أنّها لا تعرفني؟ معقول أنّها فقدت الذاكرة؟ بعد أقلّ من ساعة بقليل دخل شرطي يستأذن الضابط بدخولها، فسأله الضابط هل أخبرتها شيئًا؟ فقال له الشرطي أبدًا، فقال لتدخل إذًا.

لم يفهم زياد ما دار بين الضابط والشرطي، مما زاد في توتّره ولكنه كان يتابع حديثهما بعينين تعبتين محاولًا فهم ما يجري. خرج الشرطي قليلًا ثم عاد وبرفقته سلمى التي ما إن دخلت حتى وقع بصرها على زياد الذي انتفض

واقفًا واندفع نحوها يستقبلها. كانت سلمى تتوقع أن دعوتها إلى المخفر لم تكن إلا بسبب زياد وأنّه من الممكن أن يكون موجودًا في المخفر بشكل ما، عندما رأته بحالته الأنيقة المعهودة لها، اطمأنّت إلى أنّ الوضع لا يحتمل وجود مشكلة كما كانت تظن، فتعانقا أمام دهشة الضابط والشرطي.

سألها الضابط وهي تكفكف دموعها التي نفرت من عينيها: لماذا كذبْتِ وقلتِ أنّكِ لا تعرفيه؟ قالت: بصراحة كنت خائفة منكم، فأنا أخاف من الشرطة والعسكر، حتى أصبحتُ لا أتوقّع أي خير يمكن أن يفعلوه، ففي بلدي لا يُؤمَن جانبهم أبدًا، فهم موظفون للقتل والأذى. صمتت قليلًا ثم تابعت: سامحني حضرة الضابط فنحن هنا في تركيا بسبب ذلك.

تأثّر الضابط بما سمع منها وتمنّى لهما حياة سعيدة في تركيا ريثما تتحسّن الأوضاع في بلدهما، ثم أغلق محضر البحث، وسمح لهما بالمغادرة. شكرا الضابط على حسن المعاملة، ثم أمسكا بيد بعضهما البعض وهمّا بالخروج، فقال له الضابط مازحًا: لا تفلتها من يدك فتضيع ثانية. ضحكا وتابعا طريقهما إلى خارج المخفر.

كانت نوران قلقة وهي تنتظر اتصالًا هاتفيًا من زياد، فشغلت نفسها بتنظيف الشقّة وترتيبها حسب رؤيتها، ثم تنقّلت بين قنوات التلفاز التركية وهي تشرب القهوة، وسمعت صوت آذان الظهر ولم يأتِ الاتصال، فأمسكت هاتفها واتصلت وقد نفد صبرها. كان زياد وسلمى في هذه الأثناء يجلسان إلى طاولة في مطعم يقدّم بعض الوجبات الخفيفة، يأكلان

ويتبادلان الأحاديث. كان قد سألها عما حدث لها بعد دخولهم الحدود التركية فقالت: كنّا نسير بأمان الله عندما سمعنا إطلاق النار، تخيلت أنّ الضرب تجاهنا فنظرت إلى الخلف مرعوبة ولم أذكر إلا أنّ ساقي غرز فيها شيء ما، فسقطتُ على إثرها، ولم أنتبه لنفسي إلا وأنا في عربة الصحية حيث نقلوني إلى مستشفى أنطاكية الدولي، وما غرز في ساقي كان غصنًا يابسًا مدببًا. كان زياد يتحيّن الفرصة لإخبارها عن زواجه من نوران دون أن يؤذي مشاعرها، فهو يحبّها ولن يتخلّ عنها، ولكنّه يخشى صدمتها، وردة فعلٍ غير محسوبة منها. نظر في تلفونه النقال وبدا عليه الارتباك، ولكنّه قال في نفسه: لن تكون الفترة الفاصلة بين علمها وعدمه أكثر من عشر دقائق.

- ألو

- حبيبي انشغل بالي ولم تتصل، إن شاء الله خير؟

- ما في غير الخير، الحمد لله، الوضع تمام.

- متى العودة؟

- مشوار الطريق من أنطاكية إن شاء الله.

- طيب، الله يحميك.

أقفل زياد هاتفه، وقبل أن تسأله سلمى بدأ الحديث:

- سلمى.. أريد أن أتكلم معك في موضوع قديم حديث، وأرجو أن تلتمسي لي العذر.

- شغلت بالي.. إن شاء الله خير.

- يعني.. حتى لا تقولي أني انتهزت فرصة غيابك و..

- إني أسمعك لا تتوقف وتشغل بالي.

- تمام سأكمل، الموضوع القديم الذي تعرفيه، أنّه قبل زواجنا كنت على علاقة مع نوران، ولم نتمكّن من الزواج حينها بسبب اختلاف الدين، وبعد أن انقضت فترة من زواجنا أنا وأنت ولم يحدث.. انجاب، قلتِ لي أنّك موافقة على زواجي، وأنا رفضت الفكرة آنذاك.

قطّبت حاجبيها وقالت:

- بلى قلت، وأنت رفضت.

- سلمى أنا أحبّك ولن أتخلّى عنك، ولكنّ الجديد في الأمر أنّ نوران وافقت على الزواج بي وأنا لم أرفض، وأقترح أن نعيش معًا في شقة واسعة ما رأيكِ؟

دمعت عينا سلمى وقالت بصوت متهدّج:

- تعلم أنّي أحبّك أيضًا، ولن أحول بينك وبين سعادتك. ولكن أين نوران؟ هل ستأتي إلى هنا؟

مسح دموعها وقال لها مواسيًا:

- لا تبكي رجاءً.. وإلا سأعتبر دموعك رفضًا لزواجي.

- دموعي على نفسي وعلى ما مرّ علينا من رعب ومشاكل.

- ليس بيدنا من الأمر أي شيء.. نوران هنا، جاءت منذ عدة أيام بجواز سفرها عبر لبنان، ولا أخفي عنك فنحن.. تزوجنا.. حتى لا يكون في اجتماعنا مخالفة للشرع.. ولا مانع لديها من أن نعيش معًا.

قالت بصوت مرتعش:

- على كل حال.. مبارك، وأنا سأبقى حيث أنا في سكن الجمعية، حتى يمضي على زواجك بضعة أشهر على الأقل، بعدها يمكنني أن أزوركما وأتعرّف على نوران، ونرى بعدها إن كان يمكننا أن نعيش معًا أم لا.

- تمام، موافق، لكن بشرط أن نبقى على اتصال وأن نلتقي.

- موافقة، لكن لا تقترب من سكن الجمعية، لأنّه خاص بالأرامل والمطلّقات والوحيدات.

- أمرك سيدتي الجميلة. قالها وهو يبتسم. فأشاحت سلمى عنه بابتسامة مغتصبة.

****

- فصل الختام -

عاد زياد إلى مدينة ريهانلي وشريط الأحداث يتوالى في ذهنه وخاصة ما دار بينه وبين سلمى، وقد وجد فيها مثال المرأة المحبّة، والتي ضحّت من أجل سعادته على حساب سعادتها، وقطع على نفسه عهداً ألّا يقاطعها، وأن يسعى إلى أن يكون بجانبها كما هو حاله بالنسبة لنوران.

في الشقّة وبعد العناق، وشرح تفاصيل سفرة أنطاكية، كان زياد يزقزق كالعصافير بعد موافقة نوران على العيش مع سلمى، فاستلّ دفتره ذا الغلاف الأسود وكتب في آخر صفحة باقية فيه:

أنا محظوظ جدًا وذلك أنّ الكاتب اختار لي أن أكون في نهاية الرواية سعيدًا بزوجتين، وهذا قلّ ما يحصل- وعلى الأغلب سيكون عندنا في العام القادم طفل، وسيشرف على تربيته ثلاثة: أنا ونوران وسلمى. وقد كان قلبي يخفق طوال الفصل الأخير خوفاً من أن يتحقق الحلم الذي رأيته وتكون نهايتي تحت عجلات سيارة مسرعة لسائق متهور أثناء عبوري للطريق، قبل أن أخبر سلمى بزواجي من نوران، ثم أنقَل إلى المستشفى لتقف عند رأسي نوران وسلمى وتتعارفان تلك اللحظة فقط، وتكون مفاجأة لسلمى.. ويمكن في هذه الأثناء أن تسقط من الصدمة، أو تزداد حالتها النفسية سوءًا وتقرّر الانتحار. أو أن أموت أنا.. وتعود نوران أرملة تلبس السواد

ولم تمض أيام على زواجنا، لتبكي حظّها طول عمرها. وقد يتأثّر القارئ وتنحدر من عينيه الدموع بحسب حساسيته وانسجامه مع الأحداث، أو ملامسة الأحداث لجزء من حياته.

أما الذي يحزنني فهو شوقي إلى ذكرياتي التي لا أعتقد أني سأتمكن من العودة إليها وقد تجاوزت المحنة سنواتها العشر، كما لو أن سرطاناً تمكن من مريض، فتطول فترة العلاج والألم إلى ما شاء الله لها أن تطول، وتبقى الأيام حبلى، والولادة في المجهول.

تمت بحمد الله

رواية
ولادة في المجهول
محمد خير المصطفى
الطبعة الأولى
1445 هـ 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.